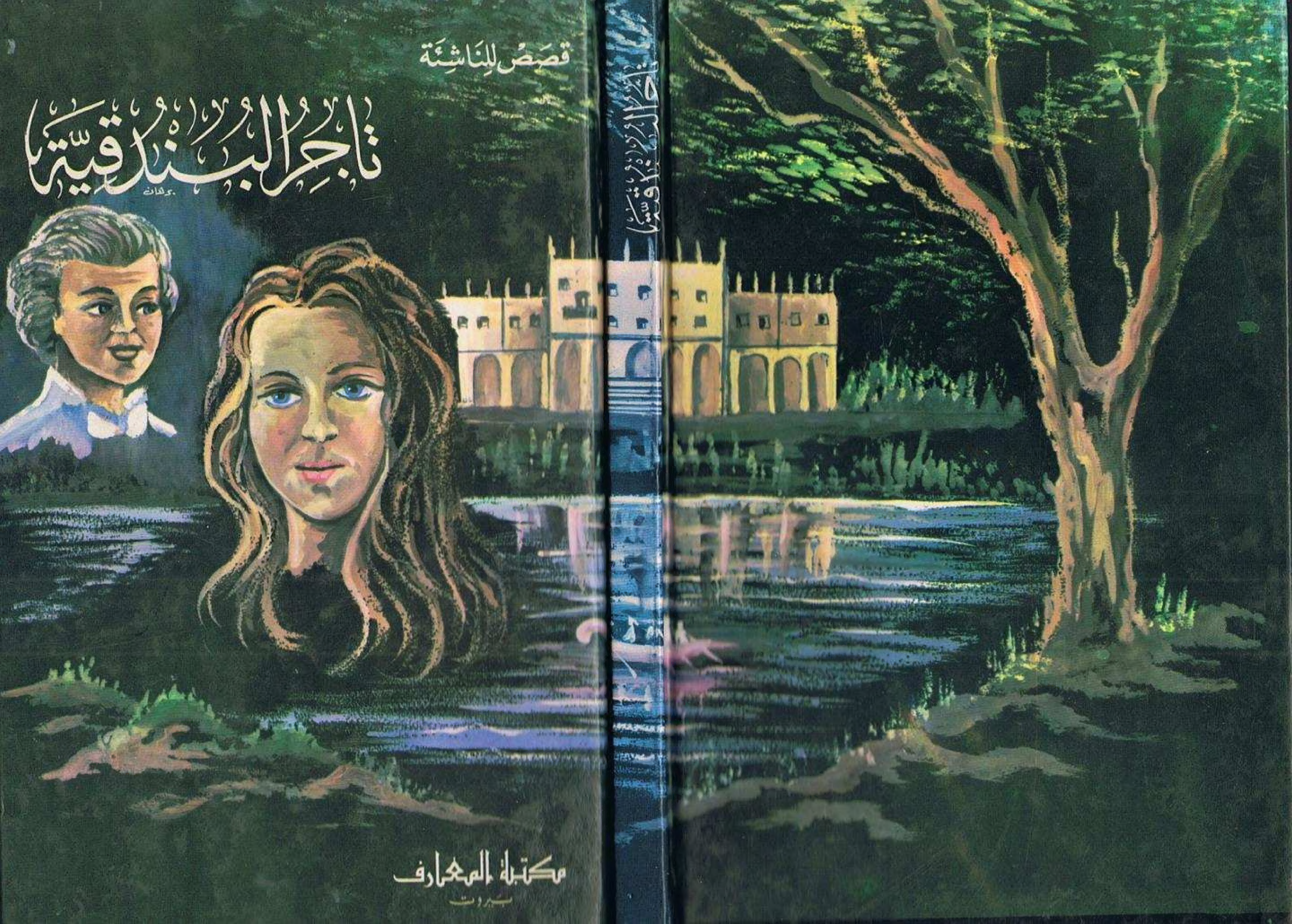

قصص للناشئة
تاجر البندقية
تاجر البندقية
مكتبة المعارف
بيروت

مكتبة المعارف
ص.ب ١٧٦١
بيروت

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بيروت

قصص للناشئة

تاجر البندقية

رائعة شكسبير

ترجمة واعداد لجنة من المتخصصين
باشراف الناشر

مكتبة المعارف
مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر - إستيراد وتصدير

بيروت



قصص للناشئة

هذه المجموعة هي من القصص العالمية المختارة تقوم باعدادها وترجمتها واقتباسها لجنة من الجامعيين المتخصصين في هذا المجال باشراف الناشر

— أليس في بلاد العجائب	لويس كارول
— جزيرة الكنز	ر . ل . ستيفنسون
— تاجر البندقية	شارل شكسبير
— جلفر	جوناثان سويفت
— روبنسون كروزو	ر ل. ستيفنسون
— قصة مدينتين	تشارلز ديكنز
— تراس بولبا بطل القوزاق	نيقولا غوغول
— مرتفعات وذرينغ ـ الحزن العميق	شارلوت برونتي
— ذهب مع الريح	مرغريت ميتشل
— الأرض الطيبة	بيرل باك
— جين إير	شارلوت برونتي
— دايفيد كوبرفيلد	شارلز ديكنز
— روبن هود	عن ولت ديزني- ميشال وست

١

كان قرصُ الشمس ينْزلقُ ببطء في الأفق الأرجواني تاركاً وراءهُ نهراً أحمرَ كأنه الذهبُ على أمواج بحر الرجراجة وساكباً على مدينة البُنْدقية الجميلة روعةً شديدة.

وكان الناس يتحركونَ على أرصفة المدينة كالأشباح. ها هم يرتدونَ أزياءهم المزركشة، وها هي الجندول تشقُ مياهَ الأقنية بصمتٍ جميلٍ. إنه صمتٌ لا يعكره سوى صوتُ انزياح الماء تحت ضربات المجاذيف.

وها هو «انطونيو» التاجرُ الذائعُ الصيت، الوافرُ الثراء، غارقٌ في تأملاته. إنه ينقلُ نظرهُ وهو حزينٌ، بين سحر المدينة التي أغرق البحر

شوارعها، وبين شمس المغيب الحمراء التي تغرق رويداً رويداً في الأفق. أتراها كانت مشدودة للاستحمام في البحر!!

لم يكن انطونيو يدرك لكآبته سبباً مباشراً. هناك هاجس مجهول قد انتزع البهجة من نفسه ورماه في دنيا من الهم ولم يكن انطونيو على ذلك الطراز من التجار الذين يسيطر عليهم حب الربح حتى يشغلهم عن مباهج دنياهم. نعم، إنه غني، وله مجموعة من السفن تجوب موانيء الدنيا من طرابلس إلى الاسكندرية إلى مياه الهند شرقاً.. ولكن كل هذا لا ينال من فكره عادة شيئاً يذكر. إن أسئلة كثيرة تتدفق عليه حتى تملأ رأسه فهو يسأل: «على أي شيء صيغ حزني هذا؟ وعلى أي شيء يولد؟ لا أدري كيف هاجمني حتى سلبني عقلي رغماً عني؟ ها أنا أكاد أقع من فوق هذه القنطرة.»

وإلى الغرب من القنطرة التي كان انطونيو يقف إلى جانبها كانت هناك حديقة وهبها الدوق (حاكم

المدينة) لشعبه ليتمتع بمناظرها البديعة، ويرتفع بأخلاقه وذوقه إلى حيث يحسن تذوق الجمال.

في تلك الأثناء كان سالارينو التاجر يتمشى مع صديقه سولانيو عبر ممرات تلك الحديقة. لكنهما لم يكونا يهتمان في قليل أو كثير بمناظر أشجار الحديقة الجميلة ولا أزهارها الناعمة. بل لم يكونا يهتمان حتى بتماثيلها التي نحتها أعظم نحاتي إيطاليا بكاملها. لقد كان حديثهما يدور حول التجارة والسفن والبضائع والأرباح والخسائر. وكثيراً ما كانت تسمع تنهدات الحسرة بين وقت وآخر، حتى ليحسب من يسمعها أن هناك كارثة حلت بهذين الرجلين. ونادراً ما كان يسمع صوت ضحكاتهما، لأن من عادات التجار الأصيلين كما يقول سالارينو: أن يندب الواحد منهم حظه لئلا يطمع فيه عامة الناس وفقراؤهم.»

كان الاثنان يسيران مثل جنديين في دورية. لقد انتظمت ضربات أقدامهما بغير وعي منهما وكانت حركتهما واحدة. كان سولانيو ينصت إلى كل كلمة

يقولها زميلهُ ولا يردُّ على أي منها بغير هزةٍ من رأسه . وحينَ وصلا إلى جانب تمثالِ الإلهة فينوس ، العارية ، التفت سالارينو إلى رفيقهِ وقال :

– أتدري يا عزيزي ، أن حرصي على بضائعي يسلبني كل دقيقة من وقتي !! ستضحكُ إذا قلتُ لك إني في كثير من الليالي أنتفضُ من فراشي كالمجنونِ وأفتحُ شباك غرفتي لأتحرّى الرياح . ويكادُ القلق يقتلني عندما أصور لنفسي أن سفينتي الحبيبة « آندرو » قد أصيبت بمكروه ! لا تعلمْ كم يصعبُ عليّ أن أتخيلَ ثيابَ الحرير الكشميرية التي تحملها السفينة تمزقُها الأمواجُ ، والتوابل الهندية تعبثُ بها الريحُ فوق الرمال ؟ أليس أسهلَ على المرء أن ينتزعَ قلبهُ من صدره من أن تضيعَ كنوزه يا سولانيو ؟!

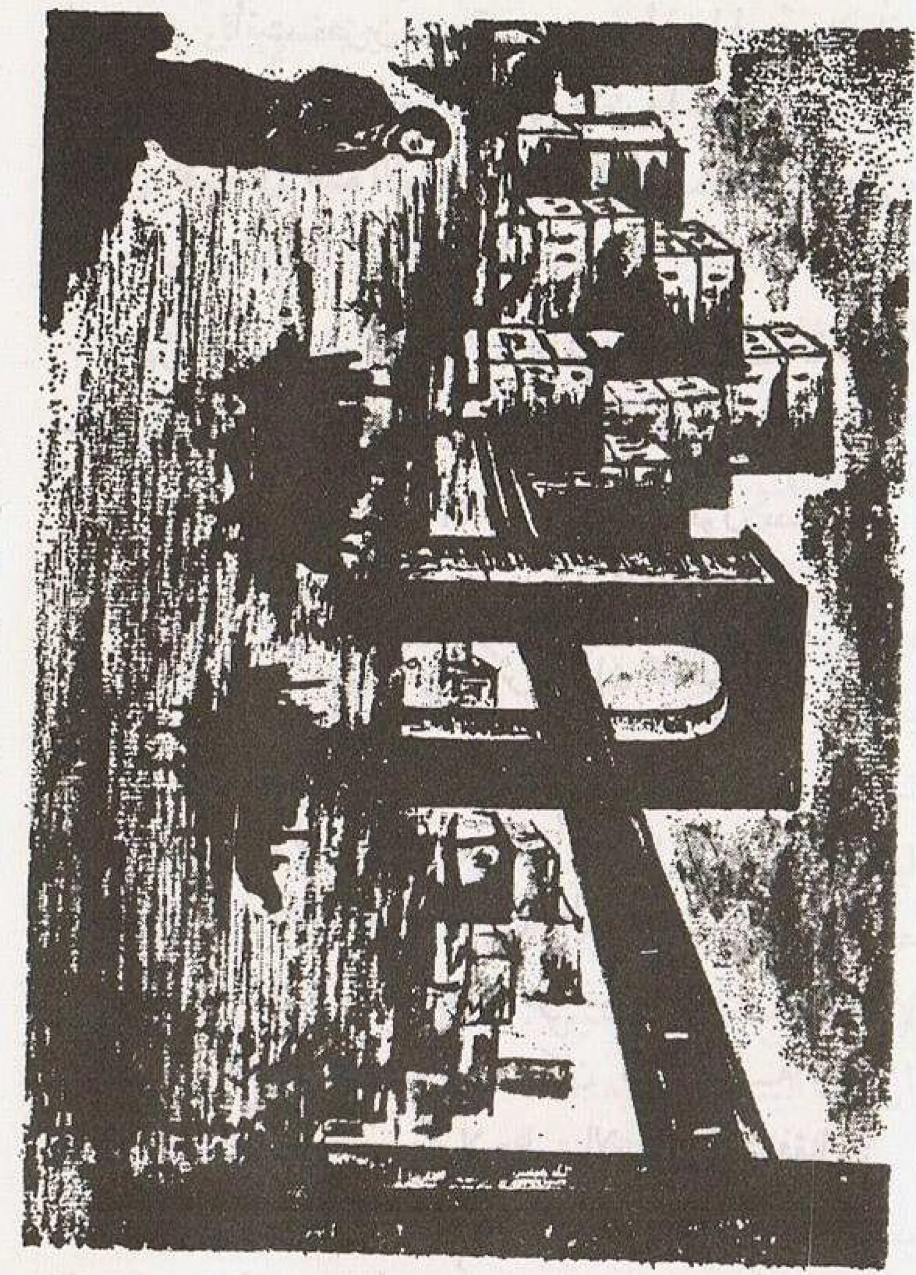
كانَ سولانيو من النوع الذي لا يأسفُ على أيِ شيء لا يمس ثروتهُ ، ولم يكنْ في الدنيا شي يدعه يتحمسُ له سوى الأكل الدسمُ والربحُ . وقد كانت هيئتهُ توحي بذلك تماماً . فقدْ كان له رأسٌ مثل كرةِ

المدفع الأسباني وكرشٌ مثلَ برميلِ نبيذ فرنسي . وكان يهز رأسه مؤيداً أقوالَ سالارينو دون أي تفكيرٍ في الإجابة .

وسارا بصمتٍ حتى بلغا بوابة الحديقة . وبلا وعي منهما ساقتهما أقدامُهما إلى رصيف القناة الكبرى وهما يضربان الأرضَ بأكعابهما ، منشغلين بالحديث الذي ساقه سالارينو وكأنه واقعٌ في القريب العاجل . وأخذا كالأبلهين يمعنانِ النظر في السفنِ التي تتهادى في مياهِ بحرِ الأدرياتيك الهادئه . فوقع نظرهما على انطونيو وهو ما يزالُ متكئاً على سورِ القنطرة الكبرى سابحاً في دنيا خياله الحزين .

نظرَ سالارينو إلى صديقه وابتسم ، فابتسم زميلُه لابتسامته وكأنه يقولُ : « لقد صدقتَ فيما تفوهت من هواجسْ ، فهذا انطونيو يكادُ الهم يقتلهُ ! »

واقتربَ الرجلانِ من انطونيو على عجلٍ ، ثم جمدا عنده وكأنهما تمثالان من النحاسِ . ووَدَّ سولانيو ممازحةَ صديقه انطونيو فقالَ :



انطونيو راقب الفندولات في

ـ لا بدَّ أن يكونَ عقلُكَ كله يتخبطُ هناك في البحر ؟ وأكمل سولانيو بسخريةٍ مغلّفة يقول :

ـ صدّقني يا سيدي لو أني جازفتُ بمالي كما فعلتَ أنت لما اختلفتْ حالي عن حالكَ .

وهكذا أخذا يُغرقان انطونيو بسيل من الثرثراتِ تدورُ حول التجارة وسوءِ الطالع . لكن انطونيو قطعَ ذلك وهو يلتفت إليهما وفي عينيه حزنٌ عميق ، ويقول :

ـ ثقا ان تجارتي ليستْ هي سببَ حزني ، فانا عادةً لا أسوقُ بضائعي في مركبٍ واحد . وأنتما تعلمان ذلك .

دُهشَ الرجلان لهذا الجواب غير المتوقعِ وتبادلا نظراتِ الاستغراب . وحدّثتْ أحدهما نفسه أن يقول: « وهل في الدنيا موجبٌ للحزن غير هذا بالنسبة للتاجر !! » .. لكنهما بقيا صامتين برهة غير وجيزةٍ إلى أن قطعها سالارينو قائلاً :

ـ إذن لا بد أن يكون الحبُّ هذه المرة قد هاجمكَ

اونتصر . أنتَ حزينٌ . وقد سمعتُ أن الحبَ يعدمُ صاحبه البهجة. أنا لم أجربْه حتى الآن ولكن يمكنني أن أوافق على مثلِ هذه الآراء ، وخاصةً أني أراكَ أمامي على حالٍ يُرثى لها.

فهزَّ انطونيو رأسه علامةَ النفي القاطـــع لما قاله سالارينو . وعند ذاك جُنَّ جنون سالارينو فهتف :

ـ ولستَ محباً أيضاً ؟! إذن دعني أقول بصراحة إنك من هواة الحزنِ . ما أغرب أطوارك أيها العزيز !!

رد سولانيو مبـــدياً تاثره وإن كانتْ لم تُفصح تقاطيعُ وجهه المنتفخ عن شيء وقال :

ـ كم بوديّ لو أستطيـع أن أجعلكَ تبدو مرحاً ! أنا مستعدٌ لأن أدفعَ ثمن ذلك من مالي الخاص...

وتبادل الثلاثةُ الحديث في مواضيعَ كثيرة كانت في معظمها من النوعِ المألوف لدى سكان البندقيـــة ، ولم يفارقْ الحزنُ انطونيو ، ولاحظ سالارينو ذلك فقال :

ـ أرى أن نتركك لوحدتك. فهي الدواءُ الشافي للأحزانِ . فأنا عندما أرجعُ حساباتي لا يهـــدأ بالي إلا

إذا كنتُ وحيداً : أحسبَ لنفسي وبنفسي كلَ شيء.

ودَّعَ انطونيو صديقيهِ وعاد إلى بحرِ تامـلاته. ها هيَ تمرُ امامهُ زوارقُ الجندول فيها شبابُ فينيسيا وصباياها يتبادلون أحاديث الهناء العـذبة ولا يهتمون لغير واقعهم . إن كل الذي من حولهم وهمٌ ، ولا حقيقةِ سوى الشباب الذين هم فيه .. فعليهم أنْ يتذوّقوهُ . أليستْ قنواتُ مدينتهم ساحرة حقاً !!

أسقطَ انطونيو دمعةً من عينيه ثم دار على عقبيهِ ومشى ينقـــلُ الخطى كما لو كان في جنازة . إنه لم يكنْ يهدفُ مكاناً معيناً ، بل كان يتجـــهُ إلى حيث تسوقهُ قدماه . لقـــد فكرَ أن يمرَّ على أحد أصدقائه ليتبادل معهْ بعض الحديث ، ولكن القلقَ جعله يعدلُ عن ذلك . فقدْ خشي أن يكون حزنهُ سبباً غير مباشرِ لإزعـــاج ذاك الصديق . وهكذا أخـــذَ يضرب على أرصفة البندقية بلا هدف .

وفي أحـــد الأزقة القريبة من ساحة « القديس بطرس » كان « بسّانيو » أحدَ أقرباء انطونيو ،مجتمعاً إلى صديقهِ « لورنزو » . وكان لورنزو هذا شاباً وسيماً

كله خفة روح. كذلك كان صديقه جراتيانو، حتى لقد أطلق عليه «الرجل المرح الذي لا يمكنه إلا أن يجعل من أقدس الأمور نكتة يتسلى بها».

بين تلك الجماعة كان الحديث يدور عن الحياة والحب والثروة. كان لورنزو يشكو حبه من «جسيكا» ابنة شايلوك اليهودي. وهو تاجر قذر يقف كالجدار العالي دون زواج ابنته اليهودية من الشاب المسيحي. أما جراتيانو فكان يثرثر ما شاء عن مغامراته وأصدقائه. وكان كلا الرجلين يعلم أن تسعة أعشار رواياته كذب في كذب، لكن جمال أسلوب جراتيانو كان يجعلهما يسرّان لحديثه مهما قال. أما بسّانيو الشاب النبيل فقد ظل صامتاً كالتمثال لا تحرّكه أحاديث زميليه. ثم نهض إلى ردائه، فلبسه وهو يقول:

– أعذراني أيها الصديقان. إن عليّ أن أقابل أنطونيو لأمر هام يخصّني.

فردّ جراتيانو:

– لقد ذكّرتني. كنت أود أن أدعوا انطونيو على العشاء هذا المساء.

وقال لورنزو:

– لنذهب سوياً ونفتش عنه، حتى إذا لقيناه مضيت أنا وجراتيانو وتركناكما وشأنكما، فأنا في شوق إلى رؤياه.

وخرج الأصدقاء الثلاثة يفتشون عن أنطونيو. ولم يطل بهم الوقت حتى وجدوه. كان يطعم الحمام في ساحة القديس بطرس، كأنه يعزّي نفسه بمشاهدة أسراب الحمام اللطيف وهي تحط وتطير بطمأنينة وحبور.

وتنبه جراتيانو إلى قلق أنطونيو فهتف:

– لست تبدو في صحة طيبة يا سيد أنطونيو. إنك تغرق نفسك أكثر من اللازم بأمور الدنيا. يا صاحبي! ان الذين يشترون الدنيا بكثير من الاهتمام والحذر هم الذين يخسرونها سلفاً.

وبعد أن رحب أنطونيو بأصدقائه الذين هبطوا عليه من السماء، ردّ قائلاً:

– الدنيا يا عزيزي جراتيانو مسرح كبير لكل منا دور فيه. ويبدو ان دوري أن أكون حزيناً. ألا توافقني على ذلك يا جراتيانو؟

– بلى . أنتَ حرٌ .أمـــا أنا فلي دورُ المهرّج الضحوك . إنني أفضلُ أنْ تحرقَ الخمرةُ كبدي أو تتمزقَ رئتي ضحكاً على أن يقتلني الهمُّ . إنـني أحبُ الضحكَ .

ثم التفت إلى لورنزو وأردف :

– هيــا يا لورنزو الطيب . هــا هوَ صديقكَ السيد أنطونيو . لندعهما الآن وحيدين لأسرارهما التي يتوقفُ عليها مصيرُ العالم . أرجوكَ يا بسانيو ألاّ تنسى موعدَ العشاء.

فقال لورنزو ضاحكاً :

– أترى يا سيد أنطونيو ! لو استمرّت عـــلاقتي بجراتيانو عامين آخرين لصار من الصعب عليّ عند ذاك تميــيزُ صوتي من كثرة الصمتِ الذي يفرضهُ عليّ جراتيانو.

وضحكَ الجميعُ . وغـــابَ لورنزو وجراتيانو في قناطر الساحة ثم ابتلعتهما منعطفاتُها ، تاركين بسانيو مع انطونيو بين أسرابِ الحمام .

*

أخذَ انطونيو بيد بسّانيو صديقه العزيز ومشيا عدةَ خطواتٍ بعيداً عن الساحة إلى رصيف نهاية القناة الكبرى ، حيث يتوسعُ البحرُ عندها .

وبعـــد أن أعتلى أنطونيو درجَ قنطرةٍ صغيرة هناك ، جعلهـــا المهندسُ الذي صمّمها حتى يستطيعَ المتفرجُ رؤيةُ أجمل مناظر البندقية من ذلك العـــلو البسيط ، قال أنطونيو :

– حسناً يا بسانيو حدّثني الآن ، من تراهــــا تلك السيدة التي أقسمتَ أنْ تخلِص لها ووعدتني بالحـــديث عنها !! . . .

وردَّ بسانيو بكلمات متباطئة يغمرُهــــا الشعورُ بالخجل :

– لستَ تجهلُ يا أنطونيو كيفَ اثقلتُ بالديون ، وأن دخلي قليلٌ . لكني لستُ آسفاً الآن بسبب نزولي إلى هذا الدَّرْك ، وإنما لعجزي عن الوفاء بديوني الباهظة. لقد ورَّطني فيها الإسرافُ في عهد الفتوّة ، فماذا أفعلُ الآن !! إني مدينٌ لكَ يا أنطونيو بأكبرِ قسطٍ منها ، ولكني عاجزٌ كما ترى .

- لا حاجة إلى شيء من هذا . أرجوكَ يا عزيزي بسانيو أن تخبرني عن حاجتكَ دون مقدّماتٍ . فإذا كان المبتغى شريفاً ، وأنتَ الرجلُ الشريفُ ، فستجدني تحت تصرُّفكَ بمالي وشخصي .

وتابعَ بسانيو حديثَهُ والخجلُ يكسو وجهه :

- في بلْمونت سيدةٌ ثرية وارثة وحسناء . إنها تتمتعُ بما هو أحسنُ من الجمال والثروة وهو الفضائل النادرة ورجاحةُ العقل . إسمها بورشيا . والدنيا كلها لا تجهلُ قيمتها ، حتى ان الرياحَ الأربع تأتيها بالخطّاب البارزين من كل الأقطار .

وأخذَ بسانيو يصفُ جمالها بإسهابٍ ، ويبالغُ في إبرازِ مزاياها العظيمة حتى انتهى إلى القول :

- فيا عزيزي انطونيو ، لو أن لي من الوسائل ما يجعلني أقفُ موقفَ المنافس بين أولئكَ الخطّاب فإن خاطري يوحي إليّ باني ساكونُ - دونَ منازع - صاحب الحظ السعيد.

ولكنّك يا صديقي تعرفُ أن كلّ ثروتي في عرضِ البحار ، وليسَ لديّ لا المالُ ولا البضائعُ التي أستطيع

بها تقديمَ المبلغ المطلوب اليكَ .

- أعرفُ ذلكَ ..

- أنتَ تعرفهُ . حسناً ،لذلك أرجوكَ أن تتوجهَ إلى من تجدُ لديهمْ حاجتكَ من أهل البندقية . حاولْ يا صاحبي أن تستدينَ أكبرَ مبلغٍ تستطيعُ . أنا الكفيلُ لكَ ، وأظن أن رصيدي الذي يساعدك في ذلك هو ثقةُ الناس فيّ أو حبهم لي .

كانتَ الشمسُ تلملمْ آخرَ سهامها الدامية من الأفقِ عندما تأبطَ انطونيو ذراعَ صديقه بسانيو وغابا في أزقةِ مدينةِ البندقية ،مدينة الأحلام.

والآن .. من هيَ بورشيا هذه ؟؟

●

٢

كانتْ « بورشيا» الفتاةُ الحسناءُ التي ملأتْ شهرتُها الدنيا تسكنُ في قصرٍ فخم تحيط به حدائقُ لا مثيلَ لجمالها إلا في حدائق الفردوسِ . كان والدها قد مات ، لكنه تركَ لها ممتلكاتٍ شاسعة وأموالاً طائلة . وكان الأبُ ، من شدة حبهِ لابنته الوحيدة ، قد فكّرَ في سعادتها في مستقبل أيامها حتى ولو غدرَ به الموت فجأةً . فتوّصلَ رأيه إلى فكرةٍ اقتنع بها ورأى أنها لا بدّ صائبةٌ في اختيار الزوج الذي يليقُ بابنته الجميلة المهذبة . لقد أوصى أحدَ صاغة الذهب أن يصنعَ له ثلاثةَ صناديقٍ أحدها من الذهب الخالص موشّى بأحجار كريمة ، والثاني من الفضة عليه نقوشٌ بديعةٌ ، والثالث من الرصاص وعليه أشكالٌ مرعبةٌ . ثم فكرَ في لُغزٍ لا

يستطيعُ حله إلا رجلٌ ملكَ قدراً كبيراً من رجاحةِ العقل والذكاء . وجعـل شرط الزواج من ابنته أن يفوزَ الخطيب بالصندوق الذي وضع فيه الأب صورةً زيتية لابنته نفسها . ثم إنه جعلَ ذلك سراً دفنه معه بعد أن حلّفَ ابنته أن تحفظَ له عهدَه ،ولا تتزوجَ غير شابٍ يختاره الصندوق الذي يحوي صورتها .

جلستْ بورشيا ذات صباح في أرجوحتها تتمتع ناظريها بحسن قصرها وأزهار حديقتها وتناسق أشجارها، كما تتذكرُ صورَ الخطابِ الذين تقاطروا يطلبونَ يدها لكنهم فشلوا في اختيار الصندوق الذي فيه الصورة . وتوقفتْ بفكرها عند ذلك الشاب من أهل البندقية الذي قدم برفقة « المركيز مونت فيرا » ونال إعجابها . فقد كان أديباً يحسنُ نظم الشعر ، وجندياً له كل ما للفارس النبيل من أخلاق . فسألتْ وصيفتها تيريز قائلة .

ـ أتذكرينَ اسم ذلك الشاب البندقيّ الذي رافقَ الماركيز مونت فيرا ؟ لقد بعثتْ صورتهُ الوسيمة في مخيلتي الآن . إنه جميلٌ .

وردّتْ تيريز وهي تهزُ ارجوحةَ سيدتها :

ـ نعمْ يا سيدتي ، أظنُ أن اسمهُ بسّانيو . حقاً ، لقدْ كان وسيماً يا مولاتي .

أطلقتْ بورشيا تنهيدة عميقة ثم صمتت تاركةً لفكرها أن يجولَ بين الخطابِ واحداً واحداً . كان أولهم أمير نابولي ، وفد وجدتْ فيه بورشيا غلاماً طائشاً لا يحسنُ التحدثَ إلا عن جدوده . ثم حاكمُ المقاطعة الذي حفظتْ بورشيا عباراته الشاذة التي ختم بها حديثه « إذا لم تختاريني فلا يهمني أن تختاري من تشائين » . ثم النبيلُ الفرنسي ، المسيو لينون ، الشديدُ الأناقة إلى درجةِ أنه لو تغنى الشحرورُ على شجرة لرقصَ هو . ثم فالكونبرغ ، البارون الانجليزي الذي وجدتْ فيه بورشيا نموذجاً مقتبساً من كل انحاء أوربا وكان باردَ العاطفة كالدُمية . ثم الشاب الألماني ، ابنُ شقيقِ الدوق الساكسوني ، الذي يبقى ثملاً طوال يومه ، ولا يكونُ في أفضلِ حالاته خيراً من الوحش . وقد توقفتْ أفكارها عند هذا الشاب ، وعلّقت الفتاة باشمئزاز :



بورشيا تشكو قدرها الى خادمتها تيريز

« لو أنه وفق واختار الصندوقَ المحظوظَ لما ترددت في مخالفةِ رأي والدي لحظةً واحدة.»

كانت تيريز تهدهد ارجوحتها وهي ساكتة، وهتفت بورشيا قاطعةً السكونَ:

– الحقّ اقولُ لك يا تيريز أن جسدي الضئيلَ قد أتعبهُ هذا العالم الكبير.

– لعل هـــذا يكونُ صحيحاً يا سيدتي الحسناء لو تعادلَ شقاؤك مع حسن طالعك، لكنني تبيّنْتُ ان هناكَ من يمرضون من التخمة فيما آخرون يقتلهم الجوعُ والحرمانُ.

وساد الصمتُ مجدداً بين الشابتين.. فقد كان لسحر الطبيعة يدٌ فاعلة تذكرُ الإنسان بوجوده. ولم تتمالكْ تيريز نفسها وقد تذكرتْ سيدها النبيل، والدَ بورشيا، أن قالت:

– لقد كان أبوك طوال عمره يا سيدتي رجلاً فاضلاً والصالحون عندما تحينُ منيتهم يلهمون الخير.

– ألا تخشينَ يا تيريز أن يفوزَ بك من لا تطيقين رؤيته؟

إن والدي قد أحرجَ موقفي ..فأنا أفضلُ الموتَ ألف مرةٍ على أن يتزوجني رجلٌ لا أرضاه .

وتقدمتْ منها خادمةٌ على عجلٍ وانحنت باحترامٍ وقالت :

– يا سيدتي إن أغراباً أربعة يستأذنونك يا مولاتي ، وهناك رسولٌ خاصٌ من أمـــيرِ مراكش يحملُ رسالةً فحواها أن الأمير سيكون هنا الليلة.

نهضتْ بورشيا من أرجوحتها وهي تتمتم لوصيفتها وتقولُ : « لو كان بوسعي أن أستقبلَ هـــذا الخاطبَ الخامس بفرحة توازي بهجتي بتوديعِ الأربعة السابقين ، إذنْ لسرَّني قدومه حتى لو كانت له اخلاقُ القديسين . إن ملامحه قبيحةٌ كالشياطين .

ومضتْ إلى القصر تتبعها وصيفتهـــا وبقيت الأرجوحةُ يلاعبها النسيم في تلك الحديقة الغناء.

*

كان بسانيو قد أوصلتهُ الحاجةَ إلى أن يطرقَ باب شايلوك ، وكان هـــذا هو المرابي اليهودي التقليدي في

البنـدقية . إنه الرجـل الذي لا يفهمُ الدنيـا إلا من باب جمع الثروات وخزنهـا . وفي هـذا السبيل لم تكن الأخـلاق والـكرامة وعزةُ النفس إلا أبواباً ومصايدَ يوقعُ زبائنه فيها ويجني من ورائها الثروات . حتى ابنته الوحيدةُ ، جسيكا – لم يكن يرى فيها أكثرَ من سلعة يمكنُ أن تأتيه بفائدةٍ مادية. هذا فضلاً عن خساستهِ في علاقته الأبوية بها وتقتيره في الصرف عليها ، ثم نكرانه لعواطفها جملة وتفصيلاً .

لم يكنْ بسانيو غافلاً عن أخلاقِ هذا المسخ ، لكنْ حاجته الملحة وحبهُ لبورشيا جعـلاهُ يصر ويلح على أنطونيو للحضور معـه إلى حانوت المرابي اليهوديِ من أجل القرض . غير أن ترددَ انطونيو في الحضور باديء الأمر كان بسببٍ من نظرتـه إلى شايـلوك ، وكان يرى فيه صعلوكاً مرابياً معدومَ الضميرِ ، مثـلهُ كمثل حشرةٍ قذرةٍ . وقـد انطلق شعور احتقـاره لشايلوك بالنظر للربا الفاحش الذي كان يتقاضاه اليهودي لقاء القرض الذي يعطيه إلى المدين . ولم يكنْ هذا اليهودي يتعففُ عن هدم حيـاة الناس في سبيل تحصيلِ أرباحـهِ الظالمةِ .

وكان يرى العدلَ من هذا الميزان : فيكون عادلاً بقدر ما يساعده ذلك في تحقيق الأرباح الفاحشة، وظالماً إذا رأى أن الرحمةَ قد تؤدي إلى فقدانه قسماً من أرباحه .

ولم يكن أنطونيو يخفي احتقاره وبغضه لشايلوك في المجتمع ، فكثيراً ما كان يوجهُ له كلماتِ الازدراء والاهانةِ أمام الناس ، وخاصةً أمام مجلس التجار في النقابة . ولكنه في سبيلِ تحقيق آمالِ صديقه بسانيو غضَّ النظر عن آرائه ورافق بسانيو إلى حانوت شايلوك ، وعند المدخل قال :

ـ أرى أن تدخلَ أنتَ يا بسانيو أولاً ،فإن استطعت إقناعه بالمبلغ الذي تحتاجه فأكون أنا بعد برهة قادماً لأوقع صكَّ الكفالة . أما إذا حصل ورفض إعطاءَكَ القرضَ فأكونُ أنا قد وفرتْ على نفسي دخولي وكرَهَ هذا المرابي الحقير . إذهب انت الآن ، وبعد برهةٍ يسيرةٍ سوف استأذن الدخولَ عليكما .

دخل بسانيو فناءَ الحانوت الواسع ، وكان حانوت شايلوكَ هذا في أصله داراً لمدينٍ مغلوبٍ على امره

اغتصبَها منهُ شايلوك بعدَ عجزِهِ عن إيفاءِ ديونهِ . وكانتْ كما يبدو عليها ، داراً جميلةً يسكنها قومٌ سعداء، فها هي الممراتُ الجانبية كلها قائمةً على أعمدةٍ قوطيةٍ من المرمر . وفي وسطِ الدارِ كانتْ ما تزالُ بقايا حديقةٍ رائعةٍ رُصفتْ ممراتها بالفسيفساءِ الملون ، وفي وسطها بركةُ ماء ذات هندسةٍ عربيةٍ هي أشبهُ بتلك التي في قصور امراء بني الأحمر في الأندلس . وفي وسط البركة كانت تماثيلُ نساءٍ عارياتٍ وأسودٌ لا بدَّ أن الماءَ كانَ يخرجُ من أفواهها إلى وسطِ البركة في السابقِ . أما الآن فقد تحولتْ إلى مقبرةٍ لأوراقِ الخريفِ . وبعد أربعةِ أدراجٍ كان مدخلُ الدارِ الرحبةِ . كان الباب الكبيرُ مشرعاً ، فتأملَّ بسانيو نقوشهُ الجميلةِ. وطالت وقفتهُ هناك. وكانَ من عادةِ شايلوك أن يجلسَ دوماً مقابلَ البابِ الخارجي ليرى كلَّ داخلٍ وخارجٍ فقال:

ـ من هنا ؟

ووقعَ نظرهُ على بسانيو ، فقال :

ـ آه ، هذا أنت يا بسانيو المبذّر ! لو كانَ لي ابنٌ على شاكلتك لا يعتبرُ للمالِ قيمةً لتبرأتُ منهُ في الحالِ .

وبعدَ أن قامَ إلى بابِ غرفتهِ واستقبلَ بسانيو أردفَ :

ـ كنتُ أعلمُ أنكَ لا بُدَّ أن تقصدَني يوماً وأنا أرقبُ المئاتِ من الدوقياتِ، بل الألوفَ منها، تحرقُ على موائدِ الشرابِ. تفضّلْ ادخلْ لنستمعَ إلى حاجتكِ.

دخلَ بسانيو إلى فناءِ غرفةِ شايلوك متقززاً من حقارةِ ذلك المخلوق العجيبِ . وكانت القاعةُ واسعةً تكومتْ على جنباتِها حاجياتٌ مرهونة وخزائنُ ذات أقفالٍ ، فيها يضع اليهودي الرهوناتِ الثمينةِ وتطلّعَ بسانيو إلى شايلوك فرأى وجهاً تهدّلت لحيتُهُ على جانبي وجنتيه فانقسمتْ عند ذقنهِ إلى فلقتين رأسُ كل منهما مدببٌ مثلَ فرعِ حربةٍ . وفي وسطِ ذلك الوجهِ كان هناكَ فمٌ تراكبتْ أسنانُهُ ، أما عيناه فقد غارتا لتختفيا وراءَ حاجبينِ كثيفينِ .

وقطعَ شايلوك على بسانيو مشاعرهُ هذهَ حينَ أشارَ إلى أكوامِ الرهوناتِ قائلاً :

ـ أترى كلَّ هذا؟ ماذا أفعلُ ! لقدْ أعطيتُ أصحابها من مالي دراهمَ صحيحة . أتدري يا بسانيو ماذا تنفعني هذهِ الحاجاتُ بل هذه الدار كلّها !؟ ما حاجتي بها كلها! يكفيني ركنٌ صغيرٌ في ساحة القديس بطرس ! إنما ماذا أفعل ؟ هذا عملي ومنهُ أعيشُ .

لم ينطق بسانيو ببنتِ شفةٍ ، بل راحَ يفكّرُ في هذا اليهودي الذي لا يهتمُّ لمآسي أصحاب تلك الرهونات وكلُّ اهتمامِهِ منصبٌ على دراهمَ قليلةٍ أعطاها لأصحابها ، مع أنه في الوقتِ المحدّد سوف يبيعها بأضعافِ القيمِ التي ارتهنها بها .

وهتفَ شايلوك بمكر :

ـ هيا استعجلْ ، قلْ لي عن حاجتِك ! ليس شايلوك أحدَ جلسائِكَ أو نُدمائِكَ لتزورهُ بلا هدف.

وأجابَ بسانتو وفي نفسهِ امتعاضٌ مرير :

ـ ثلاثةُ آلافِ دوقيةٍ ، لثلاثةِ أشهر .. وسيكونُ أنطونيو ضامناً وملزماً بأدائها .

افرَجَ شايلوك عن ضحكة صفراءَ خبيثةٍ لدى سماعِهِ اسمَ أنطونيو ، وحدّثَ نفسهُ قائلاً: «لقد وقعت

يا أنطونيو ، يا ألدّ عدوٍّ لي في البندقيـــة . سترى بأمّ عينيكَ هذا الصعلوكَ ـ كما اعتـدتَ تسميتي ـ وما يمكن أن يفعلَه بك عندما تسنح لهُ الفرصةُ » .

وعندما لاحظَ بسانيو شرودَهُ أردفَ قائلاً :

ـ في استطاعتكَ مساعدتي إذا أردتَ . فهل ستُدخل السرورَ إلى نفسي ؟ هل استطيعُ أن أعرفَ جوابك ؟

ـ ثلاثةُ آلاف دوقيـــةٍ وثلاثةِ أشهرٍ وأنطونيو ضامنها ؟؟

ـ وهل في ذلك شيءٌ لا يوحي بالثقة !

ـ أنطونيو ضامنٌ جيدٌ ، لكن أموالهُ موضع حدْسٍ وتخمينٍ . إن لهُ سفينةً ذهبتْ في تجارةٍ إلى طرابلس ، وأخرى إلى الهنـــد . وفضلاً عن ذلك فقد علمتُ في نقابةِ التجارِ أن لهُ سفينةً ثالثـــةً في مياه المكسيك ، ورابعةً تتجـــهُ صوبَ انجلترا ، كما سمعتُ عن سفن أخرى لهُ متفرقةٌ في البحار .

ـ نعمْ ، وهل من ضَرَرٍ في ذلك ؟

ـ كما تعلم يا سيد بسّانيو ، ليست السفن إلا خشباً ،

وما الملاّحونَ إلا بشراً . وهناك جرذانٌ في الـــبر وجرذانٌ في البحر ، ولصوصٌ في البرِ ولصوص في البحر . هذا علاوةً على مخاطرِ الموجِ والرياحِ والصخورِ التي قد تظهرُ بغير إذن من القبطان . ومع هذا سأرضى أن أتحدثَ إلى أنطونيو في أمرِ الثلاثة آلافِ هـــذه ، وإقراضِها لثلاثة أشهر .

وفي هذهِ اللحظةِ طرقَ انطونيو البـــابَ بمقبض عصـــاهُ الفضّي ، فصاحَ شايلوك بصوتٍ رفيـــعٍ وقال :

ـ هيا ، ادُخل إلى « مغارة اللصوص » . هكذا شاء مَسِيحُكم أن ينعتَ العملَ الشريفَ . ستجـــدُني أرحّبُ بكَ رغماً عنْ كلِ شيء .

دخلَ انطونيو بخطواتٍ بطيئةٍ . فحاولَ بسانيو تقديمَهُ إلى شايلوك ولكن شايلوك ، قال

ـ هو غنيٌ عن التعريفِ أيها السيد بسانيو . يكفيني أمرٌ واحدٌ فيه يجعلني أتذكرهُ ليلَ نهار . بل كثيراً ما تؤرقُني صورته ، ولا أنامُ . إنه هوَ الذي يقرضُ المال دون فائضٍ :

وسكتَ شايلوك . وأخذَ يحدثُ نفسهُ قائلاً: « أيها الخنزيرُ أنطونيو ، أنتَ سببُ هبوطِ الفائدة فضلاً عن أنكَ تُبغِض كلَ يهودي . لن أنسى احتقاركَ لي في مجمعِ التجّار وقذفكَ إيايَ بكلماتٍ نابيةٍ ووصفَكَ لأموالي التي جمعتُها بكدّي وتعبي بالربا . لعنــةُ الله عليّ وعلى كل يهودي إذا غفرتُ لك .

هتف بسانيو :

ـ أوَ تسمعني يا شايلوك ؟

ـ نعم.اني احسب ما لدي من مالٍ حاضرٍ . واحسبُ هذا لم تخنِّي ذاكرتي أنني لا أستطيع تقديم الثلاثة آلاف كاملةً الآن . ولكن هذا ليس أمراً ذا بال .. إن « توبال » سيمدّني بالمال وهو من أثرياء اصدقائي .

وردّ انطونيو :

ـ شايلوك ، ليسَ من دأبي أن أقرضَ المــال أو أقترضَه بربحٍ وآخذ الربا أو اعطيه ، لكنني ساتجاوز عن المألوفِ هذه المرة لأحقق مطالب صديقي بسانيو .

ـ حسناً يا سيدي انطونيو ، هاتِ الصكّ ودعني

أفكّر . ولــكن إستمعْ إليّ : أحسبكَ قلتَ إنك لا تقترضُ ولا تقرضُ بفائدةٍ ..

هزّ انطونيو رأسهُ مؤيداً فاردفَ شايلوك يقولُ :

ـ يا سيد انطونيو ! كم من مرّةٍ قابلتَني في نقابة التجار فسخِرتَ مني بسبب أموالي وكيفية استخدامي لها !! كنت تراني صابراً على ذلك.أتذكرُ مرة ركلْتني وبصقتَ على لحيتي فيها !! ولــكن لا بأس ، فشِعارنا الصبرُ . ومن أجلِ ذلك ساقرضُكَ المال ؟

وعلى هذا ردّ انطونيو بكبرياءٍ وقال :

ـ وأظنُّ أني سانعتكَ بذاتِ الأوصافِ مرةً أخرى. بلْ سوفَ أبصقُ عليكَ كما فعلتُ من قبلُ وأركلُك أيضاً . فاذا شئتَ يا شايلوك ان تقرضني المالَ فلا تفعلْ ذلكَ كما لو كنتُ صديقاً لك ، بل افعلْهُ كما لو كنتُ عدوّاً . وإذا قصّرتُ في إرجاعِه كان لك أن تقتصّ مني بغيرِ حياء .

ـ كنتُ أريدُ أن أنسى ما لطختني به من مهانة ، وأفوزَ برضاك ، بل بحدْبك كما أصادقُك . وهذه فرصة

لي . وكنت أنوي أن اسدد لك مطالبك العاجلة دون أن أتقاضى على مالي فائدة . ومع ذلك فانت لا تصغى إلي . وسابرهن لك على صدق أقوالي وعاطفتي ، هيا إلى محرر الصكوك . وسوف اطلب اليك على سبيل التسلية والمزاح ان تكتب أنك إذا لم توف في يوم كذا وفي مكان كذا بالمبالغ الواضحة في العقد كان الجزاء رطلاً من لحمك ، آخذه من الجزء الذي أختاره من بدنك ، رطلاً بالضبط .

ـ ارتضيت . سوف اوقع لك هذا العقد وآخذه وأنا أقول إن في قلب اليهودي عطفاً وافراً .

ولكن بسانيو الذي كان يستمع إلى حوارهما خشي من هذا الشرط الذي لم يسبق له أن سمع بمثله في حياته ، فصاح :

ـ لن تبرم يا أنطونيو مثل هذا العقد من أجلي أبداً .. خير لي أن أصبر على عوزي من أن اورطك . كلا ، يا صديقي .

طمان انطونيو صديقه بسانيو وقال له إنه لن

يخل بشروط العقد فلا داعي للقلق . فتدخل شايلوك وقال :

ـ يا أبانا ابراهيم ، إن أمر هؤلاء المسيحيين محير تماماً . ماذا عسى أن يعود علي بالنفع رطل من لحم إنسان ؟ إنه أقل نفعاً من نظيره من لحم الضان أو البقر ، ومع هذا فانا مضطر لتحملهم على إساءة الظن بافكار غيرهم من الناس . هل توقع الصك ؟

ـ نعم يا شايلوك . ساوقع الصك ؟

ـ اذن اسبقاني أنتما إلى المحرر بينما أكون أنا قد أحضرت بقية المال من عند توبال . وسوف ألقي نظرة على بيتي فقد تركته في حراسة مسيحي ، قذر دنيء ، لا يؤمن جانبه .

هتف بسانيو قبل أن يخرجوا من غرفة شايلوك وقال : « لا تنس يا سيد شايلوك ، أنت مدعو للعشاء في قصري مع باقي المدعوين ، وسنفرح بقدومك كما أفرحتنا الآن » . بعد ذلك خرج الثلاثة من حانوت

المرابي وشايلوكْ يدفعُ ساقيهِ الملْويتَين على عجلَ .

والتفتَ بسانيو إلى انطونيو وقال :

ـ لستُ أرضى أبداً عن شروطٍ غيرِ طيبةٍ يأتي بها عقلُ يهوديٍّ شرير .

وبعدَ حينٍ اجتمعَ الثلاثةُ عندَ محرِّرِ الصكوك في وسطِ المدينةِ ، ووقّع انطونيو الصكَ كضامنٍ ، وسلّم اليه شايلوكُ المبلغَ بيدٍ مرتجفةٍ .. ومضى كلٌ منهمْ إلى حالِ سبيلِه .

٣

في قصرِ الحسناء بورشيا كان الأميرُ المراكشي يذرعُ بهوَ القصرِ جيئةً وذهاباً ، وقد سحرهُ جمالُ بورشيا الأخاذّ . بينما كانت الحاشيةُ المرافقة له قد أفرغتْ صناديقَ هداياها في غرفةٍ جانبيةٍ .

ودلفتْ بورشيا إلى البهوِ وخلفها وصيفتُها تيريز . ثم إنها ألقتْ التحية إلى الأمير بكثيرٍ من الكبرياءِ وهزّتْ مروحتَها بعصبيةٍ وجلستْ فوقَ أريكةٍ أنيقةٍ وأشارتْ للأميرِ بالجلوس .

تعثَّرَ الأميرُ في مشيتهِ من الدهشةِ . فقدْ كانَ لا يعرفُ كيفَ يتصرفُ أمامَ ما يراهُ من سحرها الطاغي وجالتْ أفكارٌ غريبةٌ في رأسِ الأميرِ الأسمر:

آه لو كانَ الآن في ميدانِ القتالِ !! امّا الآن ، فقد

تخلّتْ عنه شجاعتهُ ونسيَ كونَهُ أميراً ذا سلطانٍ. إنه ينقلُ خطاهُ طائعاً إلى حيثُ أشارتْ له أن يجلس.

وأطرقَ الأميرُ الشجاعُ بوجههِ أرضاً كأنهُ يريدُ أن يُخفي سمرته. ولَكَم تمنّى أن يتبدلَ لونُهُ في تلكَ اللحظةِ وينقلبَ أبيضَ، لينال إعجابَ بورشيا. إنه ما عادَ يذكرُ أن سمرتَهُ وشجاعتَهُ هيَ التي ألقتْ الرعبَ في قلوبِ الأبطالِ، ولا أن تلكَ السمرةَ المغربيةَ هي مُنى أجملِ عذارى بلادِهِ.

وقطعتْ بورشيا ارتباكَ الأميرِ وسلسلةَ أفكارهِ المغلقةِ وقالتْ:

– ليسَ لِي الاختيارُ فيما أرغبُ أو أرفُضُ ولا لهواي مكانٌ هنا أيها الأمير. لقدْ قيّدني أبي بفطنتهِ وقدّر لي أن أصبحَ زوجةً لمن يظفرُ بي عن هـذا السبيلِ، السبيلِ الذي لا بدَّ أنكَ مطّلِعٌ عليه. فالواقعُ أيها الأميرُ أن لكَ من الفرصِ للظفرِ بي مِثلَ ما لأيّ قادمٍ جاءَ خاطباً حتى الآن.

أشكرُ لكِ حتى هـذا القول يا أميرتي، وأتوسلُ

اليكِ أن ترشديني إلى الصناديق لأجرّبَ حظي.

نهضَتْ بورشيا وهي مستغربةٌ لعجَلة هذا الأمير.. وتَبِعها وهي تدخلُ غرفةً أُوقدَتْ فيها الشموعُ في رابعةِ النهارِ، كما أرخيتْ الستائر الدمشقيةُ المذهبةُ فوق شبابيكها. وكانَ في وسطِ الغرفةِ العاليةِ الجدران طاولةٌ منْ خشبِ السنديانِ الثمين وُضعت فوقها صناديقُ ثلاثةٌ: أحدها من الذهبِ الخالص، والثاني من الفضةِ البيضاءِ، والثالثُ من الرصاص الرخيص.

وأشارتْ بورشيا إلى الأميرِ قائلةً:

– هيا جرّبْ حظكَ، وشرطي هوَ إما أن تمتنعَ بتاتاً عن الاختيارِ وتمضي إلى حالِ سبيلك كما قدمت معززاً، ولك أن تفعلَ ما تشاءُ. وإما أن تُقسِمَ قبلَ الإقدامِ على الاختيارِ أنك إذا أخفقْتَ فلنْ تتزوج طولَ عمركَ. هذه هي شروطي.

تقدّم الأميرُ المراكشي ينظرُ إلى الصناديقِ الصغيرةِ الثلاثةَ وظلالُ رؤوسِ الشموعِ الملتهبةِ تتراقص عليها. كان الصندوقُ الذهبي يعكسُ أشعةَ الأضواءِ بارتهاجٍ

كقرص الشمس بينما يعكسها الصندوق الفضي بيضاء ، كاشعة القمر ،فيما الصندوق الرصاصي يكاديطفىء نورها الضعيف . إحتار الأمير في الأمر وحدث نفسه يقول: « لو كان الأمر نزالاً لأشجع الشجعان لرويت التربة من دمائه بسيفي . لكن ما حيلتي وأنا امام اختيار مغامر قد يفوز بجوهرة نادرة أو يخسر مباهج دنياه !»

وأخذ يطيل التفكير ويطيل .. فانتبهت بورشيا إلى قلقه ، فهتفت :

ـ لك أن تفكر منذ اللحظة حتى آخر العشاء قبل أن تقرر ما تفعل . أرجو من الأمير الشجاع الآن أن يشرفني إلى مائدة الغداء وبعدها يخلق الله ما يشاء . ووافق الأمير في الحال على دعوتها ،إذ هبطت كلماتها عليه من السماء ، فلحقها دون تردد ، مخلفاً الصناديق الثلاثة يرتجف الضوء على هياكلها كأنه هو أيضاً يخشى الخسران في مهمة الاختيار.

*

في أحد أزقة البندقية كان « لونسلو » خادم شايلوك ، المرح ، يرقص في مشيه طرباً ولماذا لايطرب

وقد قرّ رأيه أخيراً أن يفرّ من مخدومه اليهودي ! لقد أغراه صيت كرم بسانيو على خدمه بعد أن سمع الكثير منهم عن الثياب الجميلة المزركشة التي ينعم بها. السيد بسانيو عليهم،والمعاملة الكريمة التي يعاملهم بها. سمع كل ذلك وقارنه بما يقاسيه تحت رحمة سيده القاسي الذي يعامله بدون رحمة ، كما يكاد يقتله جوعاً خشية الإسراف في الأكل . تردد لونسلو طويلاً في أمر الفرار ، فقد كان يصطرع في نفسه قطبان : أحدهما ضميره الحي الذي يحثه على تحمل جور ذلك اليهودي،والآخر أمل الخلاص الذي يدفعه إلى التخلص من العبودية طلباً للحرية .

وأخيراً قرّ رأيه على الهرب بعد أن أقنع نفسه على هذا الشكل : « إن الهرب من فعل الشيطان ولكن هذا اليهودي هو الشيطان بعينه » . لذلك كان يتراقص طرباً وهو يقترب من دار السيد بسانيو .

واستوقفه على مقربة من باب السيد بسانيو رجل عجوز يمشي كأنه أعمى ، وكان في إحدى يديه سلة

مغطاةٌ بقطعةٍ من القماش وفي يدهِ الأخرى عصاً غليظةً .

وقال الرجل :

ــ أرجوكَ يا سيديالشاب أنْ ترشدني إلى الطريقِ المؤدي إلى بيتِ السيد شايلوك الغني .

انتبهَ لونسلو إلى الشيخِ فإذا به « جوبو » والده هو، فهتفَ لنفسهِ قائلاً : « بحقِ السماءِ هذا أبي . إنه لم تميزني لشدةِ ضعفِ بصرهِ فلأداعبْه قليلاً على سبيلِ التسليةِ . » فامسك بيد الشيخ وقال بخبث : متى بلغت إلى المنعطفِ القادمِ اتجهْ يميناً ثم يساراً مرة أخرى ، وبعدِ المنعطف اتجه يميناً ثم يميناً مرة أخرى ، ثم يساراً ، ثم تقدَّمَ بعدها مباشرةً صوب دار اليهودي شايلوك .

وضحِكَ لونسلو خفيةً وهوينتظرُ ماسيفعلهُ والده الشيخ بينما تردَّدَ الشيخُ بين المشيِ والوقوفِ وهويتمتِم بصوتٍ عالٍ قائلاً : « يالله، سيكونُ عثوري على الطريق شاقا . أفي وسعكَ يا هذا أن تخبرني أن مسكيناً يُدعى لونسلو كان يُقيمُ مع شايلوك لا زالَ في خدمتهِ . »

وقاطعَهُ لونسلو متصنعاً الجدَّ والغضبَ في آن واحد وقال :

ــ أو تتحدثَ عن السيد لونسلو الشاب ؟

أجابَ الشيخُ بتواضعٍ وبراءة .

ــ كلا يا سيدي هو سيداً وإنما هوَ ابن رجلٍ فقيرٍ، لكنه أمينٌ ومستور الحال .

وبعد برهةٍ من هذا الأخذِ والردِ والجدلِ المبطَّنِ بالمزاحِ هتفَ لونسلو .

ــ ألم تميزني يا أبي ؟ أنا ابنُكَ ، ابنُ مارجوري زوجِكِ .

أخذَ الشيخُ يجسُ وجهَ ابنه وبدنه وقال :

ــ يا الله ، لقد نبتتْ لك لحيةٌ كثةٌ مثلَ شعرِ ذنبِ بغلي . كيفَ حالُ سيدك اليهودي ؟ لقد أحضرت له معي هدية .

وعلى هذا ردّ لونلو بغضبٍ :

ــ كان الأجدرَ بك أن تقدِّم له حبلَ مشنقةٍ ، ذاكَ المحتالِ الذي جعلَ جلدي يلصق بعظامي من فرطِ الجوع . أنا سعيدٌ برؤيتكَ يا أبي . لتقدّم هديتكَ إلى سيدي الجديد بسّانيو . هيا ادخل معي إلى دارهِ فنحنُ على بعدِ خطواتٍ منها . والله

يا أبي لو بقيت في خدمة المرابي يوماً آخر لأصبحت يهودياً ملعوناً .

وأمسك لونسلو بيد والده وقاده إلى بيت السيد بسانيو . وحين أرشدهما البواب إلى غرفته وجداه مشغولاً ، فسمعاه يحث خادمه وهو يقول :

- في وسعك صنع ذلك على أن يتم بسرعة حتى يكون العشاء مهيئاً في الساعة الخامسة على أكثر تقدير . إبعث هذه الرسائل إلى أربابها، ومر بترتيب المفروشات اللائقة واطلب إلى السيد جراتيانو أن يحضر حالاً .

تقدم لونسلو يصحبه والده الشيخ من السيد بسانيو وألقيا إليه تحياتهما فقال بسانيو :

- أتبغي مني شيئاً أيها الشيخ ؟

- هذا ولدي يا سيدي ، انه ولد فقير .. تكلم يا لونسلو .

- لست غلاماً فقيراً يا سيدي ولكني خادم اليهودي الثري ، وأنا أرغب في خدمتك يا سيدي الكريم . إن شايلوك أساء معاملتي .

فأكمل جوبو حديث ابنه وقال :

- نعم يا سيدي ، هذا مطلبي . وقد جلبت لسيادتكم بضع يمامات شوتها زوجتي مارجوري بعناية خاصة أريد أن أقدمها إليك راجياً قبولها .

- وهل يصح التخلي عن خدمة يهودي ثري مثل شايلوك للعمل مع فقير مثلي ؟!

فرد لونسلو بلباقة وذكاء :

- لك فضل الله وله المال الوفير .

إذ ذاك لم يجد بسانيو بدأ من الموافقة على إلحاق لونسلو بخدمته ، وأمره أن يذهب ويودع مخدومه اليهودي كما تقتضي التقاليد في مثل هذه الأحوال ، وأن يستغل هذه الفرصة ويكرر الدعوة له لحضور حفل العشاء كذلك أمر لخادمه الجديد بكسوة جديدة تعطى له في الحال .

وأمسك لونسلو بيد والده ومضى في طريقه إلى بيت شايلوك وهو يقول لأبيه :

- أحسبك كنت تتوهم أني عاجز عن الظفر بعمل وأني لا أملك لساناً أفصح به عما أريد .

ـ هذا ما كنتُ أظنّ ...

ـ إعلمْ يا أبي أنهُ ليسَ في إيطاليا كلها لونسلو مثلي.

ولم يكادا يجتازان بوابةَ منزلِ السيد بسانيو حتى سقطَ الشيخُ وقدْ صدمَهُ كتفُ السيدِ جراتيانو الذي دخلَ مسرعاً إلى منزلِ بسانيو . فانحنى جراتيانو ورفعهُ عن الأرضِ بلطفٍ واعتذرَ له بكلماتٍ مهذبة ، ثم عبرَ إلى حيثُ كان بسانيو مشغولاً بالإعدادِ لحفلِ العشاء .

وصاحَ جراتيانو وهو يرى بسانيو :

ـ لقد بلغني أنكَ ستسافرُ متى طابتْ الريحُ إلى بلمونت ، فأرجوكَ أن تصحبني معك .

ـ لماذا؟ ؟

ـ ليتسنّى لي في عمري مرةً واحدةً أن أمتعَ ناظريَ بالجمالِ الذي فاقَ كلَ وصفٍ .

ـ أيُ جمالٍ تعني ؟

ـ جمالُ من سلبتْ عقلك من رأسك يا صاحبي .

وضحِكَ بسانيو بصوتٍ عالٍ ، ثم قالَ :

ـ أهلاً بك يا عزيزي . أنا لا أمنعكَ من ذلك .

لكنْ شريطةَ أن تكونَ حذِراً في حديثكَ . وتكون قادراً على كبحِ جماحِ نفسِكَ حتى لا يصدرَ منكَ أيُ سوءِ تصرّف يكونُ سبباً يثيرُ الظنون، فتضيعُ آمالي.

ـ أُقسم بقُدْسيةِ صداقتنا أن أكونَ مثالاً في الاتزان ولكن .. لا يشمَلَ هذا القسَم حفلةَ الليلة. هل اتفقنا؟!

ضَحِكَ بسانيو وقال :

ـ أنا لستُ أبله حتى أفسِدَ ليلتي هذه بلجَمِكَ . بلْ منْ دواعي سروري أن تنطلقَ الليلةَ على سجيتِك وتُدخلَ السرور على قلوبِ ضيوفي الكثيرين هذهِ الليلة. ليكنْ ذلكَ على شرفِ بورشيا العزيزةِ ، بل على شرفِ دوقية بلمونت عموماً .

انفرجَتْ أساريرَ جراتيانو لارتياحهِ لجوابِ صديقهِ فهتفَ قائلاً :

ـ أشكُرك من صميم قلبي .. والآن أستودعُكَ على عجلٍ ، إذ يجبُ أن ألقى لورنزو وباقي الجماعة . إلى اللقاء حتى موعد العشاءِ أيها العزيزُ بسانيو .

وغادر جراتيانو على عجل كما قدم ، وكان في قدومه وذهابه مرحاً خفيف الروح .

قاد لونسلو والده إلى مكان يمكنه أن يعود منه إلى منزله بيسر وسهولة . أما هو فقد ذهب مسرعاً إلى منزل مخدومه السابق ، شايلوك ، ليودعه قبل أن يلتحق بعمله الجديد مع السيد بسانيو ، وكي يذكره بدعوة سيده الجديد له للعشاء .

ولم يجد لونسلو سيده القديم في المنزل وإنما وجد ابنته جسيكا وحيدة هناك .

ولكن أي فتاة كانت جسيكا هذه !؟

كانت فتاة كثيرة الأحلام ، تفتش عن عريس وسيم وقد وقع خيارها على لورنزو ، الفتى العصري ، فراحت تصوره لنفسها وكأنه بالفعل زوج محب لا نظير له . لقد ملك حبه قلبها . . وزاد من رغبتها فيه كونه شاباً على غير دينها ، إذ كانت تكره دين والدها بسبب من جشع والدها وتقتيره عليها وسجنه إياها في المنزل ، وعدم التفاته إلى رغباتها كل ذلك ليغطي عدم رغبته في صرف بضعة دراهم ذهبية من أجل مظاهر زائفة على حد تعبيره .

نادى لونسلو جسيكا مرتين قبل أن تعلن عن وجودها ثم تقدم منه لرغبة في نفسها ، إذ لعل لونسلو يأتيها ببعض الأخبار عن لورنزو وبعد أن ألقى لونسلو تحياته واحترامه قال :

- الوداع يا أجمل كافر ، وأحلاها !

فبكت جسيكا وهي تقول :

- يؤسفني أنك قد عزمت على ترك والدي على هذا النحو إن دارنا هذه هي الجحيم عينه ، ولقد كنت أنت شيطاناً مرحاً يخفف عني الوحشة .

وبعد تردد قصير ركزت أثناءه النظر على وجه لونسلو الدميم قر رأي الفتاة أن تتعهد له بمهمة . وقالت في نفسها : « إنه لا بد سيحقق لي رغبتي ما دام في قصر بسانيو الذي تربط لورنزو الحبيب به صداقة متينة » . فأخرجت من بين ثيابها كيساً كبيراً فيه نقود ورسالة وسلمته إلى لونسلو وهي توصيه قائلة :

- إذا لمحت لورنزو على مائدة سيدك بسانيو

أعطِه الرسالةَ خِلسةً ، وإذا لم تجدْه سلِّم الأمانتَين لبسانيو فهوُ سيوصلها له على أيةِ حال .

ثم غابَتْ مسرعةً إلى غرفتها خشيةَ أن يحضرَ والدُها فجاةً ويضبِطها تكلِّم رجلاً في غيابهِ . بينما عادَ لونسلو على عجلٍ إلى دارِ سيدهِ الجديد .

*

كانَ لورنزو مجتمعاً إلى أصدقائِهِ جراتيانو وسالارينو وسولانيو . وكانوا يتدارسونَ أمرَ الحفلةِ التي يُعدها بسانيو عما قريبٍ . وقد رأى لورنزو أن تكونَ الحفلةُ حفلةً تنكُّرية تسبقها جولةُ حمَلةِ المشاعل في شوارع البندقيةِ وأزقّتها وأخذَ يوزعُ الأدوارَ على أصدقائهِ ويعدُّ العدّة لتكونَ حفلةً لائقةً .أماالآخرون فكانوا يناقشون حججَهُ ويعارضونه في رأيه . وكانوا يعتذرونَ بأنهم لم يُعدُّوا بعد حمَلة مشاعلهم .

دقتْ الساعةُ الرابعةَ ومـا زالَ النقاشُ دائراً بينَ الأصدقاءِ .. وعلى غيرِ انتظارٍ ، أطلّ لونسلو على الجماعةِ وأشارَ إلى لورنزو أن يخرجَ . ثم إنهُ ناولهُ

الكيسَ فاخفاهُ لورنزو في ثيابهِ . ثم أعطاهُ رسالة جسيكا وهو يقول :

ـ إنها في انتظارك .. وقد كتبتْ لكَ كلَّ شيء .

فنقدَهُ لورنزو بعض الدراهم وفضَّ المغلّفَ على عجلٍ وأخذَ يلتهمُ سطورَ الرسالةِ وهو يكادُ يطير فرحاً . ثم أخذَ يرقصُ طرباً لكلماتِ جسيكا الصادقة في عاطفتِها نحوه .

وعندما همّ لونسلو بمغادرتِهِ صاحَ دونَ وعيٍ منهُ وقالَ :

ـ لا تنسَ يا لونسلو الطيب أن تُبلغَّ جسيكا بأن لورنزو لها ، ولن يتخّلى عنها وسيكونُ عند وعدِهِ . قلْ لها ذلك على انفرادٍ .

ثم عادَ لجماعته يقول :

ـ ماذا قرّ رأيكم ؟ هل ستُعِدون عُدّتكم لحفلةِ لتنكر هذا المساء ؟ أما أنا فقد ضمنتُ الآن حاملاً لشعلي .

وافق سالارينو على رأي لورنزو ، فهزّ سولانيو



لونسلو يسلّم لورنزو
رسالة جسيكا

من بعدهِ مباشرةً رأسهُ بالموافقةِ ، ومضيا في سبيلهما لإعدادِ عدتهما بينما سأل جراتيانو بخبث :

ـ اذنْ كانَ ذاكَ رسولاً من جسيكا ، يا لورنزو العزيزة ؟!

ـ آه يا جراتيانو ، يا صديقي الطيب . الحبُّ يفعلُ العجائبَ فقد كتبتْ جسيكا تصفُ طريقةَ الهربِ هي إلى أيِ مكانٍ أشاء . هلْ أتقاعسُ بعدَ هذا ؟ وهي تقولُ إنها سوفَ تتخلى عن يهوديتِها وتدخلُ في دينِ المسيح من أجلِ حبها لي .. ولا أُخفيكَ أن جسيكا هي التي اخترتُها لتكونَ حاملةَ مشعلي .

كان جراتيانو يستمعُ إلى لورنزو وهوَ في أطيبِ حالاتِهِ . وقد اعتبرَ جراتيانو كلَّ هذهِ الصراحةَ من صديقه ثقةً أكيدةً في إخلاصهِ له . وهـا هو لورنزو يربتُ على كتفِ جراتيانو ويقولُ :

ـ هيا نسرعُ إليها يا صديقي الشهم وليحترقْ ذلك اليهودي الكافر كَمَداً.

*

كانَ لونسلو يسيرُ بتثاقلٍ وقـد أعياهُ التعبُ ، وأخذَ يتذمر ويحدّثُ نفسه قائلاً : واللهِ لولا احترامي للسيد الطيبِ بسانيو لما كلّفتُ نفسي أي عناءٍ من أجلِ ان أدعوَ كلباً يهودياً على طعامٍ .

وكان لونسلو قد ذهب إلى حانوت شايلوك ولم يجدهُ . ومرّ على صديقه اليهودي توبال كي يسألَ عنـه ، فأبلغهُ هذا ان شايلوك عاد لتوه إلى داره . والتقى به لونسلو أخيراً أمامَ مدخلِ الدارِ فصاح :

ـ يا سيد شايلوك ، يا سيد شايلوك ، أرجوك .. لديَّ أمرٌ أريدُ أن أبلّغكَ إياه . لقدْ أضناني التعبَ وأنا أفتشُ عنكَ فأرجوكَ استمعْ إليّ .

وأجابَ شايلوك دونَ أن يلتفتَ اليه قائلاً :

ـ أعلمتَ ذلكَ أيها المهرجُ ؟ هـل تعتقدُ حقاً أني غبيٌ إلى هذا الحد! ثقْ أنه إذا تحركَتْ على أرض البندقية نمـلة وكان لي في حركتِها رائحةُ فائدةٍ أو ذرةٌ من الضرر لعلمتُ ذلكَ في الحالِ . لنرى بعد حينٍ : أنت ستحكم بنفسِكَ بالفرقِ بين شايلوك العجوز الذي

أطعمكَ كلَّ هذهِ المدة عندما كنت مثل ثعلبٍ جبليّ جائع ، وبين بسانيو الذي لن تنالَ عنده من الطعام ما يشبعُ معدتكَ الواسعةَ ، والتي لا أحدَ يعرفُها أكثرَ مني .

ثم دخلَ شايلوك الدارَ يتبعهُ لونسلو وهو يكملُ حديثَه ويقول :

ـ لن يدعكَ بسانيو تستريحَ لحظةً ، فلن يجدُ النومُ طريقَه إلى جفنيك .

ثم توقفَ فجاةً وارتسمتْ على وجهه أماراتُ الدهشةِ ، فقد كانت العادةُ أن تنزلَ جسكا كلما لامسَ قدمهُ عتبةَ الباب الخارجي وتحومُ حولهُ تخدُمهُ كالقطة الأليفة . لكنها لم تفعلْ هذه المرة.ولذلك صاحَ شايلوك :

ـ جسيكا .. جسيكا .

ولكنهُ لم يتلقَّ جواباً . فجُنّ جنونهُ وطلبَ إلى لونسلو أن يصيحَ بصوتِه الرخيمِ ، فقد تكونُ في إحدى الغرفِ الجانبيةِ وإلا فإن هناك أمراً مروّعاً قد وقعَ لا محالة .

وقد صدقَ ظنُّ اليهودي .. فقد كانَتْ جسيكا في الغرفةِ الداخلية التي تطلُّ على حديقةٍ عامةٍ . وقد تسلّتَ هناك بمشاهدةِ روادِ الحديقة وهي تنظرُ اليهم وفاتَتْها نداءاتُ والدها الخافتة . وقد هبطتْ على الفور عندما سمعَتْ صوتَ لونسلو يناديها ، ظناً منها أنه عاد إليها بجوابٍ من لورنزو . لكنها فوجئَتْ بمرأى والدها العجوز وهو يسُعلُ ويتمتِمُ كلماتِ تذمُّر غيرَ مفهومة.

ثم جلسَ على أريكةٍ عليها سجادةٌ قديمةٌ وقال للونسلو :

ـ إنهم يتملّقونني ، أنا أعلمُ ذلكَ . ولنْ أذهبَ إلى حفلةِ مَديني بدافع الحب والمودةِ بل بدافعِ الحقدِ والكراهيةِ . سوفَ آكلُ على مائدةِ ذلك المسيحي المبذّرِ وأرى بعيني كيفَ يبعثرُ آلاف الدراهم التي اقترضها لأسبابِهِ الخاصة .

ثم التفت إلى جسيكا وقالَ لها :

ـ جسيكا ، ابنتي الغالية ، أيتها اليهوديةُ الأصيلةُ ، أيتها البذرةُ الصالحةُ لدينِ موسى ويشوع بن نون . إليكِ مفاتيحَ الدارِ فاعتني بها . لديَّ يقينٌ أن أمراً خبيثاً يدّبرُ لي في الخفاءِ .

وسلّم العجوز المفاتيحَ إلى ابنته ثم قال :

ـ أغلقي كل الأبواب ، وإذا سمعتِ الطبّالين والزمّارين وذوي الرقاب الملتوية فاغلقي كلَّ النوافذ دون اولئك النصارى الحمقى أفهمتِ ؟ لا تدعي أصوات المجون التافهِ تدخُلُ منزلي الهادىء الرزين .

ثم التفتَ إلى لونسلو وقال :

ـ هيّا اسبقني وأعلِنْ قدومي .

ثم غابَ في غرفةٍ جانبية لحاجةٍ يقضيها . فاستغلّ ذلك لونسلو وقال لجسيكا بحذرٍ :

ـ إنَّ لورنزو سيمرّ بك فارتدي لباسَ الغلمانِ وانتظريهِ في الشباك المطلّ على الحديقةِ . إياكَ أن تنسى ذلك .

*

كان أصدقاءُ لورنزو ينتظرونَهُ في المكانِ المحدّدِ لهمُ ، وكانوا يرتدون أزياءً تنكّرية خاصةً بالحفلةِ . لكن ها قد أزِفَ الموعدُ ولم يطلّ لورنزو بعد !

في هذا الوقتِ كان لورنزو في الحديقةِ الملاصقةِ لدارِ جسيكا يُلقي إلى شبّاكها حصىً ويصفرُ الحاناً تعرفها جسيكا جيداً . وأخيراً أطلّت الفتاة وهي

متنكرةً في زيّ غلامٍ ثريٍ من أهلِ البندقيةِ . وكان
تنكرُها متقناً إلى درجةٍ أنه صعبَ على لورنزو نفسه
في بادىء الأمر أن يُميّزَها . فقدْ جمعتْ شعرَها الأشقرَ
الطويلَ كلّه في طرطور مزركش وارتدتْ بنطالاً
صوفياً يكادُ يلصقُ على ساقيها الجميلتين ، ورداءً زاهياً
ضيقاً عند صدرِهِ ، وواسعاً جداً من الاكتافِ حتى
منتصفِ الساعدين. وكان المخملُ الأزرقُ الموشّى بخيوطِ
الذهب يُكسبُ ذلك الزيّ جمالاً باهراً . نزلتْ جسيكا
على عَجلٍ ، تساعدُها داليةُ العنبِ المعرّشة إلى ارتفاعِ
قرميدِ السطح ، فاحتضنها لورنزو وهو يمسكُ بشعلهِ
ثم جريا راكضاً إلى حيثُ كانَ الرفاقُ بانتظارهم .

وعندما وصلا إلى هناك كان الرفاقُ قد استبدَّ بهم
الضجر . فما ان لمحوا شبَحَي لورنزو وجسكا حتى
هتفَ جراتيانو :

ـ ماذا أبطأكَ أيها الولهان ؟ إن الأحبة دوماً
يهرعون قبلَ الموعدِ المضروب .

اعتذرَ لورنزو لأصدقائه بكلماتٍ رقيقةٍ ثم حثّهم
على المضي فوراً إلى الحفلة . وبينما كان الجمع يسير

مسرعاً إلى مكانٍ يشعلونَ فيهِ مشاعلهمْ ثم تبدأُ المسيرةُ
التي تسبقُ الحفلةَ الكبرى بليلةٍ ـ كما هي عادةُ أهلِ
البندقيةِ ـ ألقتْ جسيكا كيساً إلى لورنزو وقالت :

ـ خبّئهُ عندكَ إلى جانبِ أخيه ، ففيهِ بقيّةُ
حصّتي .

تلقّفَ لورنزو الكيسَ برشاقةٍ ودسّهُ في وسطهِ ثم
ناولَ المشعلَ إلى جسيكا وهو يقولُ :

ـ هيّا أمسكي مِشعَلي ، لقد اتفقنا أن تكوني
أنتِ حاملةً لمشعلي .

فترددَتْ جسيكا قليلا ثم قالت :

ـ ولكني أستحي أن يكشفَني نورُ المِشْعلِ وأنا
بهذا الزيّ . واللهِ لولا حبي لكَ لما ورطتُ نفسي بما
أستحي منه .

وكانوا قد بلغوا الزاوية المحددة لإشعالِ مشاعلهم ،
فاتقدَتْ نيرانُ المشاعِلِ كلها وأضاءَتْ المكانَ ، وأخذ
الرفاقُ ينظرونَ إلى وجوهِ بعضِهم البعضويضحكونَ
ويمرحونَ .ولفَّ لورنزو يدهُ حولَ خصرِ جسيكافاهتزَّ
المشعلُ في يدها وأبرزَ مفاتنها الحسناء.فهمَسَ لها شوقاً :

- ما أجملك حتى في ثياب الغلمان ! وكان من ورائه جراتيانو المهرج فمدّ رقبته بين رأسيهما وقال :

- قسماً بما يسرهم إني لأجدها غير يهودية .

وأخذ الجميع يتابع مسيرته بينما لم يكن لورنزو يهتم إلا لجسيكا . فكان طوال الطريق يحدثها عن سعادتها المقبلة ويمطرها آيات حبه وإخلاصه لها . ولم ينس أن يعدد محاسنها عند كل خطوة ومع كل حركة تاتي بها .

توقف الموكب الهازج الصاخب فجاة . وكان ظهور انطونيو هو السبب في ذلك . فتقدم جراتيانو يعانقه بينما راح انطونيو يقول متسائلا :

- ماذا أخركم إلى هذا الحد . قد لا تقام الحفلة الليلة بالرغم من كل شيء ، فقد طابت الريح وتحولت لصالح بسانيو وقد تدفعه للإبحار . كنت قد أرسلت أكثر من عشرة أشخاص يبحثون عنكم .

وعلى ذلك رد جراتيانو بمرحه المعهود .

- لن أكون على أسعد مما لو صح ظنك ، فالإبحار

في المساء يضفي على الرحلة سحراً خاصاً برفقة بسانيو ورفقتي . كما أن مصاحبة العشاق في رحلة العشق تسكب بهجة من نوع لم نالفه بعد.

ومضى الموكب في مسيرته . وكلما أضاء مساحة صغيرة من القمة لم تلبث الريح ان أطفأتها . وهكذا ظلوا في حركة دائمة في ذلك الجو المرعب من الظلام.

*

وفي قصر الحسناء بورشيا في بلمونت كان أمير مراكش قد فرغ من غذائه مع الآنسة الساحرة . وكان يتمنى في قرارة نفسه لو يكون ذاك العشاء أبدياً . لكن فكرة الاختيار كانت تقلقه فعلاً لدرجة أنه كان يتجنب أن ينظر إلى باب الغرفة ويطرد صورة الصناديق المشئومة بإصرار ، مستغرقاً في تأمل محاسن بورشيا التي كثيراً ما أطرق برأسه استحياء من نظراتها. وقطعت الحسناء استغراقه وقالت :

- لقد حان الوقت أيها الأمير . لك أن تختار ويكون ما قدر له أن يكون .

فنهض الأمير متثاقلاً وكأن يداً شيطانية اقتلعته

من كرسيه ، وتبع بورشيا إلى الغرفة . ثم تقدم وحيداً إلى وسط الغرفة حيث كانت الصناديق جامدة كما رآها في المرة الأولى .

أخذ الأمير يتفرس ملياً في الصناديق الموضوعة على نسق يبدأ بالصندوق الذهبي على يمين الأمير ، والصندوق الفضي في الوسط ، وإلى يساره الصندوق الرصاصي الأخير . فانحنى على الصندوق الذهبي يقرأ ما كتب على هيكله حفراً .

« سينال من يختارني ما يرغب فيه الكثير من الناس » .

قرأ الأمير العبارة وهو يحدث نفسه :

أي يد شيطانية نقشت هذه الكلمات ؟

وهل يرغب أحد في غير الحسناء ؟

إن الملوك ياتون من أركان الدنيا الأربعة لكي يحظوا بتقبيل أناملها ومشاهدة طلعتها .

لقد أضحت صحاري آسيا الوسطى ومجاهل بلاد العرب وكأنها طريق روما التي يسلكها الأمراء، ليشاهدوا

وجه بورشيا . وأضحت البحار والمحيطات بحيرات صغيرة غير ذات شأن في نظر الأمراء المأخوذين بسحرها .

أيمكن أن يضم صورتها سوى هذا الصندوق الذهبي ؟

ثم قال لنفسه : « لأرى ما كتب فوق الصندوق الفضي لعل فيه ما يرشدني» فقرأ فوق الصندوق الفضي عبارة « سيظفر من يختارني بما هو جدير به » . فاحتار وهو يحدث نفسه قائلاً : « تدبر أمرك يا أمير مراكش وكن عادلاً في تقديرك . » وردد : لو قدرت حسب قيمتي فانا أستأهل الكثير ، وان كان هذا الكثير لا يفوق هذه الحسناء .

ثم قطب حاجبيه وهو يتابع جداله الذاتي قائلاً : إن مجرد الشك في كفايتي تحط من منزلتي ، فانا أستحق هذه الحسناء بكرم أصلي وثروتي ومحامد نشأتي . وفضلاً عن هذا كله ، فانا أضمر لها حباً عظيماً في نفسي ، فماذا لو وقفت عند هذا واخترت ؟

ولكنه وجد نفسه مشدوداً لأن يقرأ ما نقش على الصندوق الرصاصي : « يجب على من يختارني أن يعطي وأن يقامر بكل ما يملك » . وانفرجت أساريره عن بسمة ازدراء وهو يردد لنفسه غاضباً :

« أيقامر المرء من أجل الرصاص ؟ إن هـذا الصندوق يتوعد . إن الرجال الذين يقامرون بكل شيء إنما يفعلون ذلك أملاً في الفوز بمزايا طيبة . وأية قيمة لصندوق رصاصي حتى يقامر من أجله رجل ذو عقل راجح ؟ »

وقف الأمير برهة ينظر إلى اللاشيء . وراح العرق يتصبب على وجهه ويبلل شاربيه ولحيته القصيرة . وأخذت صور الصناديق الثلاثة وكأنها أشباح يصرخ كل منها بعبارته ويدعوه اليه . فسد أذنيه بعصبية . ثم انقض كالعقاب على الصندوق الذهبي ورفعه في الهواء . فاشارت بورشيا إلى الأمير أن يأخذ مفتاح الصندوق الذهبي ويفتحه .

وعندما فتح الأمير الصندوق خاب أمله .. لقد

وجد فيه جمجمة عظمية لميت ، وكان في أحد محجريها رسالة تناولها الأمير باسى وراح يقرأها أمام بورشيا بصوت منخفض : « طالما استمعت للحكمة التي تقول : ليس كل ما يبرق ذهباً . وكم من رجل باع حياته ليشاهد منظري الخارجي لا أكثر . إن الديدان تسعى داخل القبور المطلية بالذهب . ولو أن عقلك كان يعدل شجاعتك ، وكانت لك حكمة الشيوخ في جسم الشباب لما كان جوابك هذه الرسالة . وداعاً . لقد فشلت خطبتك » .

تحول الأمير الحزين عن بورشيا بعد أن ودعها بقلب كسير وهو يقول : إن قلبي المفعم بالشجن ليقف بيني وبين أن أقول بضع كلمات .

وانصرف ذلك المراكشي الشجاع يجرجر أذيال الخيبة ثم لحق به مرافقوه ... بينما كانت موجة من الفرح تغمر بورشيا .

* * *

صدق تقدير أنطونيو وحدث ما توقع ، فقد رحل بسانيو يصحبه جراتيانو ووافق على هرب لورنزو

وجسيكا على متن سفينته بعد أن طابت الريح . فيمم نحو بلمونت ليجرب حظه ، وجرت الحفلة بدونهم . ولكن كان هناك أمر غير هذا أثار في مدينة البندقية زوبعة صارت شغل سكانها الشاغل . فقد أحدث هروب جسيكا مع حبيبها لورنزو ضجة في كل مكان . وجن جنون اليهودي شايلوك فاخذ يولول في الأزقة والساحات ويبكي ويصرخ ويتوعد . فتجمهر من حوله جمع غفير من صبيان البندقية فرحين لهذا المشهد الذي لا مثيل له إلا عند مرقص السعادين . لذا راحوا يطلقون الهتافات ويهللون ويطربون وهم يرددون : «الكلب اليهودي سرقت عظمته الذهبية . هي .. هي . » وقد أحكموا الحلقة من حول اليهودي وهو يصرخ بكل قوته : « ابنتي ! دراهمي ! لقد هربت ابنتي مع مسيحي ! أين العدالة ؟ أين القانون؟ مالي ! ابنتي ! »

هرع الجنود عبثاً يفرقون الصبية من حول اليهودي الذي استبد به الجنون وراح يصرخ :

« كيسان مختومان من الدراهم المزدوجة سرقتها

المجرمة مع الجواهر !! والحجران الثمينان سرقتهما ابنتي ! يا للعدالة ! إيتوني بالذهب ، بالدراهم ، بالحجرين النفيسين ! »

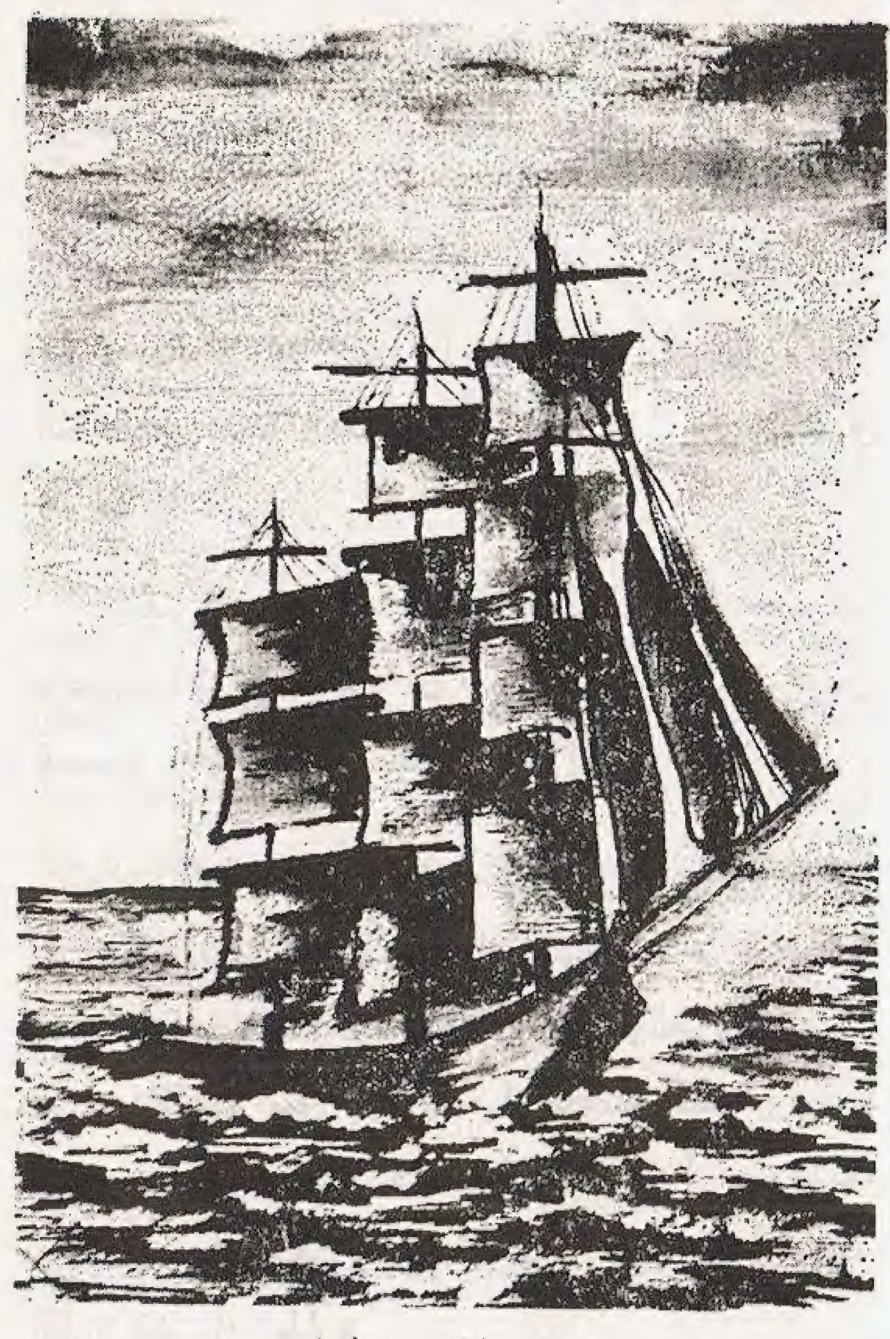
كان سالارينو وسولانيو ـ التوأم الذين لم يعتد أهل البندقية على مشاهدة أي منهما دون الآخر ـ يراقبان المشهد عن كثب . فهمس سولانيو يتحدث مثل العادة . « بات على أنطونيو الطيب القلب أن يحرص على موعده ، فهذا الكلب اليهودي قد أصابه داء الكلب وهو شرير . إنه لا يتوانى عن الإقدام على أي أمر بعد الذي حدث.»

وسأله سولانيو بغبائه المعهود :

ـ ألا قل لي ، هل عثر الجند على لورنزو وجسيكا على ظهر سفينة بسانيو ؟ .

ـ كلا لقد تمكن جراتيانو من إخفائهما بمهارة فائقة ، وبلغني أن أمر البحث لم يكن جدياً فقد سبق للورنزو ان أعلم الدوق بنيته قبل أن يمضي في رحلة شهر العسل .

*



سفينة بسانيو وعليها
لورنزو وجسيكا الهاربان

كذلكَ كانَ في البندقيةِ أمرٌ آخر من سوءِ الطالع. فقدْ حدثَ أن غرِقتْ سفينةَ التاجر انطونيو بحمولتها في مضيق دوفر ، تماماً في الوقت الذي كان يودِّعُ فيه صديقَهُ بسانيو وينصحهُ بالاّ يهتمَّ لأمرِ الصكِ ، فيستعجل العودة ويفسدَ رحلته. كما نصحَهُ أن يهتمَّ فقط بان يكونَ على أحسن حالٍ ليستعينَ بالمعِ مواهبِهِ في خطبتِهِ .وقد كانَ الوداعُ فعلاً تظاهرةً رائعة للصداقةِ فقد بلَّل انطونيو لحيةَ بسانيو بدموعِهِ .

ولمْ تهجعْ مدينةُ البندقيةِإلاوقْتَ طقطقَتْ جنباتُ كلِ انسانٍ فيه ضحكاً من فصلِ مسرحيةِ اليهودي، حتى إن الحاكم خشيَ فعلاً على ذلك المسكين أن يفقدَ عقله فأمرَ الجندُ بحملهِ قسراً إلى داره وإغلاقِ الباب دونه .

كانَتْ بورشيا قد غمرِها الفرحُ وتهللت أساريرُها بعدَ مغادرةِ أميرِ مراكش عقِبَ فشله . فهي لم تكن ترى فيه أكثرَ من رجلِ حربٍ ، معدومَ العاطفة ، وتتخيلُ الحياةَ معه أشبهَ بحلم مخيفٍ وطويل . وكانت صورةُ الشابِ بسانيو تنجرّ إلى مخيّلتها كلما ذكرتُ الأمير المراكشي الأسمر . فبسمتُه الساحرةْ وكلماتُه

الحلوُ كانَتْ من الأمورِ المفرحةِ بالنسبةِ اليها . وهذا بالرغمِ من أن معرفتها لبسانيو لم تتعدَّ سهرةً واحدةً حضرها بسانيو مع الحاكم . لكنّ سهرةً واحدةً لمثل بورشيا كافيةً تماماً لتقديرِ الجليسِ . فقد وجدتْ فيه الفتاةُ ذلكَ الشابَ الذي يدل على نبلِ الأخلاق وسعةِ الثقافةِ ورجاحةِ العقلِ . وهو جُلُّ ما تتمناه في زوجها المنتظر .

وبينما كانت بورشيا غارقةً في تأملاتِها حضرتْ وصيفتُها تيريز لتُعلمها أن أميرَ اراغونه قد فرغَ من قسَمِهِ وهو على استعدادٍ للدخول إلى غرفةِ الاختيار .

إذ ذاكَ نهضَتْ بورشيا بقرفٍ واضحٍ واشمئزازٍ في أعماقِ نفسها من ذلكَ العمل الذي يتكرر يومياً مع خُطّاب لا يشبه واحدهم الآخر . وشعرت بورشيا ان هذا الفعلَ المملّ باتَ يشكّل لهاعقدةً نفسيةً ويرميها في دوّامةِ الهم والقلقِ كلّما قيل إن زائراً جديداً واقفٌ ببابها . وكان والدها قد حرّمَ عليها في وصيتِهِ أن ترفُضَ أيَّ طارق .

جرّت أذيالَ ثوبِها الفضفاض وأزاحَتْ أمواجاً من الهواءِ وهي تسيرُ إلى الغرفةِ التي فيها الصناديق الجامدة.

ولم تلتفتْ بورشيا إلى مراسمِ التبجيلِ والتحيّةِ المبالَغِ فيها التي مثّلها أمير أراغونه أمامها بل رسمتْ ابتسامةً باهتةً على شفتيها ، مجاملةً للخاطبِ الدميمِ ، ولم تكلّفْ نفسَها عناءَ الوقوفِ وتقديمِ يدها له ليقبّلها كما تقتضي العادة .

اندفعَ أميرُ أراغونه منفعلاً نحو الصناديق وقد احمرّت عيناه غضباً وتراقص شارباه الأشقران تحتَ أنفه الوردي . ووقفَ أمامَ الصناديق يهتزُّ ذاتَ اليمين وذات اليسار وكلُّ لحظة تمرُّ به تفصّد جبينه عرقاً بارداً وتجعلَ عضلاتِ وجهه تتورّم ويزدادُ احمرارها وهجاً . كانَتْ الحيرةُ تسيطر على حركاته ، فمرةً ينحني على الصندوق الذهبي وكانه في حضرةِ امبراطورٍ مهيبٍ ، ومرةً يعتدل ويكتّف يديه ضاغطاً بإصبعه بشدة على جبينه .

ولاحَظتْ بورشياقلقهالواضِحَ المتزايدَ ، فارادتْ أنْ

تهدىءَ قليلاً من اضطرابهِ فقالَت لَهُ :

أنظرْ أيها الأميرُ الكريمُ ، هـذه هي الصناديقُ . فإذا اخـترتَ الصندوق الذي يحوي صورتي عُقِدَ قراننا على الفور . أما إن أنتَ أخفقتَ فمِنْ واجبِكَ أن تنصرفَ من هنا فوراً دونَ كلامٍ .

اهتزّت أعطافُ الأمير مثلَ اهتزازِ الأرجوحـة وكأن كلماتُها هبطت برداً وسلاماً . وهـذا صحيحٌ . فقـد وفّرت له تلك الكلمات برهـة ابتعدَ فيها عن تركيزِ فكرهِ ، وراحَ يقرأُ مثنى وثُلاثَ العبـاراتِ المحفورة على الصناديقِ ، ويقلبُ الأمر ويثنيه ويحدثُ نفسه وهو ينحني فوق الصندوق الذهبي قائلاً :

ـ ما الذي يرغبُ فيه الكثيرُ من الناس ؟ ربمـا كان المقصودُ بلفظِ (الكثير) هذه الجماهيرُ الحمقاء الذين ينقادونَ للمظاهرِ فيما يختارون . فما الذي يجعلني أهبطُ إلى هذا الدرك ؟ إنه خليقٌ بالجهَلة والغوغاء .

لذلك تحوّلَ عنـه بهزة رأسٍ عصبية ثم أخـذَ يتفرسُ في الصندوقِ الفضي. واعتدلَ كالعمودِ الكورنثيِّ

واتّكأ براحتيه على رِدفيه وأخذ يدمدمُ محاوراً نفسه :

ـ من الذي يسعه أن يُخاتلَ القدرَ فيدّعي الشرف وهو غيرُ أهلٍ له؟ليسَ لأحد ان يدّعي ما لا يستحقـهُ . ولو حصلَ العكسُ إذنْ لانتمى كثـيرٌ من فقراءِ الفـلاحين وضعافهم إلى كرامِ العـائلات ذوات الشرف الرفيـع .

هذا لن يكون .

وتوقّف قليلاً وهو في هيئةِ مروّضِ النمور وكفّ عن التطلعِ إلى الصندوق الرصاصي . ويبدو انه وجدَ من اللائق بمكانته أن يبدوَ أمامَ من جـاء يخطبُها على أنه من عامةِ الشعب الّذين لا يتوانونَ عن النزولِ إلى أي دركٍ في سبيل غـاياتهم . ثم أعـاد قراءةَ عبارةِ الصندوق الفضي ، فحرّكتْ معانيها فيه نخوة غامضة ، هتفَ بعدها في نفسه : « أنا جديرٌ بها وهي جديرةٌ بي». ثم رَفَعَ يدهُ اليمنى في الهواءِ وكانه يلقي خطبةً نارية أمامَ جيش عظيمٍ وصاحَ :

ـ إليّ بمفتاح الصندوق الفضي فاكشفُ عن حظي من فوري .

وأعطته بورشيا مفتاحَ الصندوقِ الفضي، فتناوله دون أن يلتفتَ لها وفتح الصندوقَ على عجلٍ. لكنه انتفضَ مصعوقاً لما وجــدْ .. فقدْ كانَ في الصندوق تمثالٌ صغيرٌ لمعتوهٍ مشقوقِ العينِ في يدهِ رسالةٌ مطويةٌ.

تردد في أخذها باديء الأمرِ وكأنه يحدّثُ التمثالَ وهو كاسفُ البالِ ويقولُ: ما أكبرَ الفرقَ بينكَ وبينَ بورشيا، وما أعظمَ الفرقَ بينك وبين كفاياتي وآمالي.

ثم هزّ رأسهُ متأثراً وأردفَ: أفلم أكنْ جــديراً بأكثر من تمثالِ هذا المعتوه؟

وتناولَ الرسالةَ وفضّها فاذا بها تقولُ له: «لقدْ تطهّرَ هذا التمثال في النار سبع مراتٍ. ولقــدْ تمّ فحصهُ سبعَ مراتٍ ولم يحدثْ من قبلُ أن طاشَ سهم اختياري. بيدَ أن من الناسِ نفراً يقبّلون الأشباح، وهؤلاء لا يظفرونَ من السعادةِ إلا بخيالها العابر. ولا شكّ في أن بينَ الأحياءِ بلهاءَ يبدونَ في مظهرٍ أسمى من حقيقتهم، وتلك حالُ ذلكَ الصندوقِ. فلتتزوّج بمنْ شئتَ فسأظل أنا على المدى فوق رأسك. انصرف اذنّ، فلقد أنجزتَ مهمتك».

دارَ الأميرُ مغموماً على عقبيه ومشى ببطءٍ وهو يجرجر أذيالَ الخيبة. وقْتَذاك لم ينطقْ الأميرُ بكلمةٍ، حتى إنه غَفَلَ أن يودعَ بورشيا، وغادرَ القصرَ تتبعه حاشيتُه منْ ورائه وغابَ في خضمّ الغابةِ المحيطةِ بالطريق.

طَربَتْ بورشيا لفشلِ الأمــير المهرّج وراقبته بفرحٍ شديدٍ وهو يغادرُ بوابةَ مقرّها. ثم ألقتْ جسدَها فوقَ أريكةٍ ناعمةٍ وقالتْ لوصيفتِها:

ـ آهٍ يا لهؤلاءِ الحمقى! إنهمْ حينَ يختارونَ تتجلى حكمتُهم في قُدرتِهمْ على الخسارةِ! وبعدَها يحترقُون احــتراقَ الفراشاتِ في لهبِ الشموعِ. أليسَ كذلكَ يا تيريز؟.

ـ حقاً إنّ الاقدارَ هيَ التي تتحــكمُ في شؤون الموتِ والحياةِ.

وسادَ الصمتُ فترةً ليستْ قصيرةً ظلّت خلالها بورشيا مُسترخيةً هادئةً كأنها أزاحتْ عن صدرهــا كابوساً عظيماً. ولم تشأْ الوصيفةُ أن تعكّرَ هدوءَها فوقفَتْ إلى جانبها كالتمثالِ الحجريِ لاتُبدي حراكاً.

في هذه الأثناء كان بسانيو قد وصل بلمونت هو وصديقه جراتيانو . وقد وجد ان من الأدب أن يرسل خادمه بعد أن يحمله بالهدايا إلى بورشيا ، ليعلن عن موعد قدومه . كما وجد في هذا ما يحتمه عليه سلوكه المهذب ، وهو ما يليق بعاملة الحسناء بورشيا . لذلك درب لهذه المهمة أمهر خدمه وأكثرهم أناقة . وألبسه أجمل الثياب وأثمنها ، وحدد له حركاته وسكناته وطريقة أدائه للكلام والحركة والسكون . واختار له كلمات هي في لغتها أقرب إلى الشعر منها إلى الحديث الدارج . وقد أعد ذلك كله ليعبر عن شعوره المتدفق تجاه بورشيا العزيزة التي ملك عليه حبها قلبه .

وقف الرسول امام باب القصر ، وسلم الخدم الهدايا وأمر بنقلها واضافتها إلى كنوز بورشيا، وأعلن انه ينتظر أمر السيدة للمثول بين يديها و نقل رسالة من سيده إليها .

ولم يطل به الانتظار . . فقد حضرت بورشيا بنفسها لاستقباله ومراقبة حركاته والتملي بأناقته ووسامته التي

بالغ الخدم كثيراً في وصفها . فما أن أطلت بورشيا من باب قصرها حتى عزفت موسيقى الرسول وتقدم الرسول جمهرة من المرافقين، وسار هو في مشية منتظمة حتى بلغ عقب الدرج حيث تقف بورشيا . فتقدم الرسول منها وانحنى بمنتهى التهذيب انحناء الأمراء . ثم اقترب منها وتناول كفها وقبله . ثم عاد إلى الخلف خطوات معدودة وأبلغها رسالة سيده لها بكلمات لم تسمع في حياتها أعذب منها . وكان الرسول يشير إلى بسانيو بكلمة « سيدي » دون ذكر اسمه .

ارتاحت بورشيا لحسن تصرف الرسول ولباقته وعذوبة كلماته ، فهتف هاتف في اعماقها يقول : إذا كان الرسول على هذه الدرجة من اللباقة فكيف ترى السيد يكون ؟ ودعت من اعماقها أن يكون سيد هذا المهذب هو بسانيو عينه الذي لم تعد تذكر منه غير طيف مبهم الصورة وغير واضح القسمات .

*

٤

استيقظ شايلوك في صباح اليوم التالي وقد تيبست عضلات جسده الهرم . ذلك أن هرب جسيكا مع الدراهم والأحجار الكريمة أفقده صوابه . ولم يدر كيف بات ليلته ولا على أية حال . فلم يكد يفتح عينيه حتى أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . ثم طفق يركض بعصبية إلى الأماكن التي كان يضع فيها دراهمه وكنوزه . ومرة بعد أخرى كان شايلوك يدخل على عجل إلى غرفة .. جسيكا لعل هربها ليس إلا كابوسا .

والواقع أن نبأ فرارها مع مسيحي ليتزوجها قد صعقه . أما فقدانه لثروته فقد جعل منه ذئبا مفترسا حاد الطباع . فأخذ يصرخ بهيستيريا عصبية :

ـ أيثور علي لحمي ودمي . إنها هالكة لا محالة .

* * *

دخل المرابي اليهودي توبال على صديقه شايلوك فوجده على تلك الحالة الكئيبة التي تثير الشفقة . وقد ارتأى توبال أن يبكر في زيارته لقلقه على ابن طائفته ، وخاصة أنه لم يمض على وصوله إلى البندقية غير ساعات معدودة .. وكان قد مر بجنوى وفي جعبته أنباء لصديقه شايلوك .

أمسك توبال بذراع شايلوك وأجلسه إلى طاولة وسقاه كأسا من الماء ليهدىء له خاطره بينما لم ينفك شايلوك يصيح بعصبية ويقول :

ـ أعلمني يا عزيزي توبال : هل عثرت على ابنتي ؟ ما هي أخبار جنوى ؟ كيف الحال ؟

يا توبال ؟ أسرع اعلمني . لا أطيق الصبر !

رد توبال بصيغة يريد بها تهدئة صديقه وقال :

ـ لقد حصل أن زرت أماكن كثيرة مرت بها جسيكا مع ذلك المخلوق لورنزو ، لكني عجزت عن الاهتداء اليها !

كان شايلوك يضرب ركبتيه بكلتا راحتيه ويتمتم :

« يا ويلتا .. يا ويلتا .. » ، فرفع من نبرة صوته يريد أن يفضي ما بنفسه أمام توبال وقال :

ـ كان اللعنة لم تحلّ على أمتنا بعد ! لقد سرقت الملعونة في الأرض وفي السماء ـ ماسة اشتريتها من فرانكفورت بألفي درهم يا عزيزي توبال . ألفين من الدراهم ينطح أحدهما الآخر !!

ثم أخذ توبال يفضي ما في جعبته من أخبار جسيكا ، وأنها كانت تبعثر دراهم شايلوك ، وذاك يضرب رأسه بقبضتيه . ونزلت أخبار إنفاق جسيكا لثمانين درهماً دفعة واحدة في مطعم جنوي ، وشراءها قرداً دفعت ثمنه خاتماً عليه حجر زبرجد ـ وكأنها صاعقة انقضت على رأسه ، فكاد ينفجر غيظاً ..

وسكت توبال برهة ثم قال :

ـ تجلّد . عندي لك أخبار غير هذه .. عن سوء طالع نكب به أنطونيو ، التاجر الذي ضمن قرضك لصديقه بسانيو . لقد سمعت في جنوى أنه فقد سفينة كبيرة كانت قادمة من طرابلس . وقد تحدثت إلى البحارة

الناجين بنفسي ، ألا يعني هذا لك شيئاً ؟ بل قل إنه الفال الحسن . لقد وقع أخيراً في قبضتك .. ذلك المعتوه الذي يهب أمواله للآخرين دون فائدة ..

انفرجت أسارير شايلوك لهذا النبأ وراح يقول :

ـ لقد علقت أيها التاجر المسيحي المبذّر . قسماً بآيات التوراة واحدة واحدة لسوف أصنع من لحمك طعاماً للسمك . وإذا كان لحمك لم يطعم شيئاً آخر فلسوف يطعم ثاري . لقد حرمتني بما دعوته نبلاً وشرفاً نصف مليون درهم على الأقل . لقد حان الوقت لكي يتخلص منك مجلس نقابة التجار ويسخر من تصرفاتك الغبية . عند ذلك أستعيد نشاطي التجاري بمختلف صنوفه . وماذا ستعني ثلاثة آلاف درهم آنذاك وقد اشتريت بها حريتي !!

ثم نهض وأخذ يرقص طرباً ، وأمسك بكتفي صديقه يجره إلى حلبة الرقص وهو يصرخ بهستيريا :

ـ سترى كيف ينفذ شايلوك اليهودي القذر الصك أيها المسيحي المتعجرف دمائي كلها تصرخ وتطالبني

بالانتقامِ .بلْ قلْ :دماءُ اليهودِ جميعاً تصرخُ للانتقامِ .

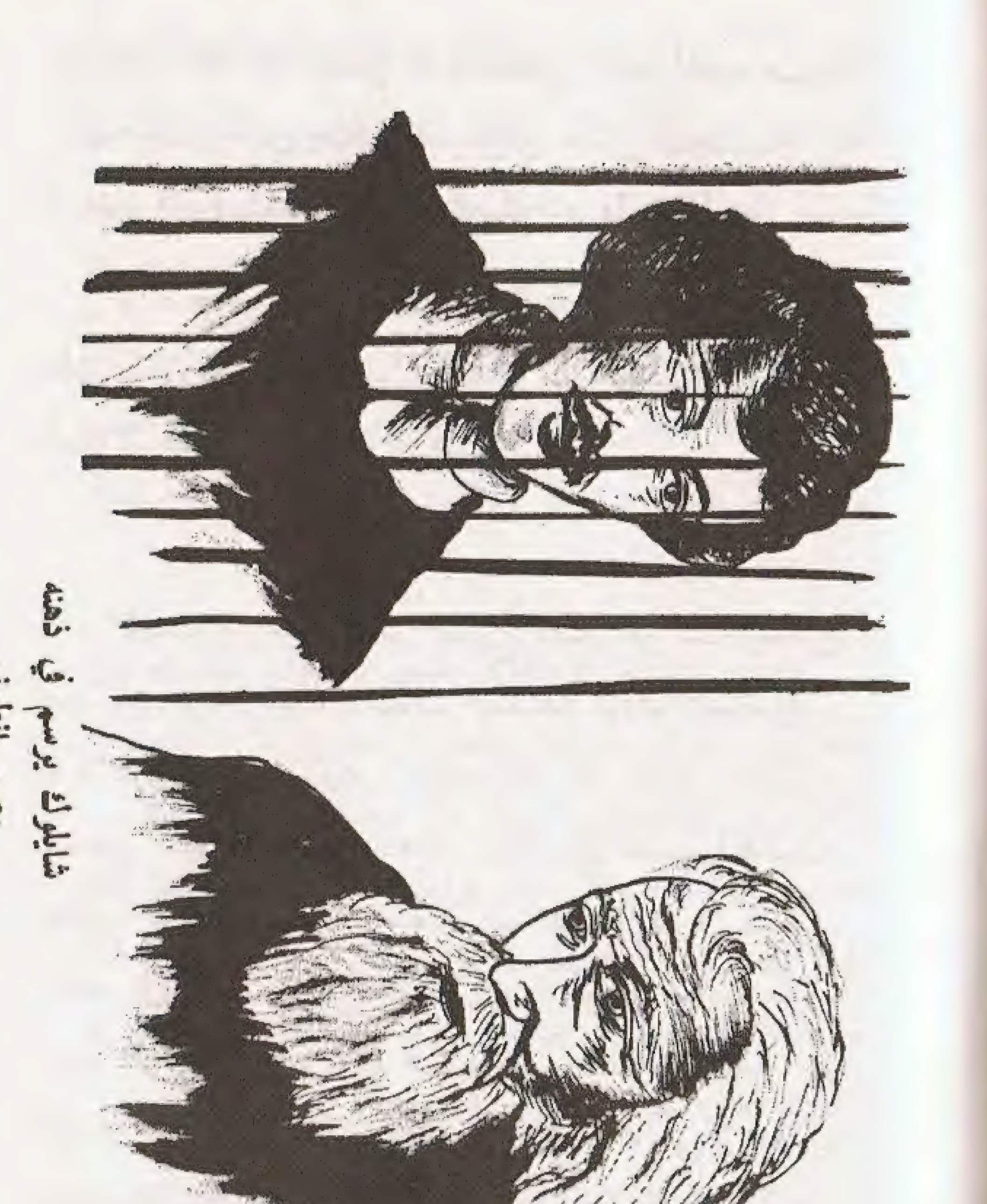
ثمَ هدأتْ موجةُ جنونـهِ شيئاً فشيئاً، فهتفَ لتوبال وقال :

ـ إنتظرْني عنـدَ الكنيست يا توبال . أنا ذاهبٌ لتوّي لأستاجرَ شرطياً وسأدفعُ لهُ أجرةَ أسبوعينِ مقدماً قبلَ موعـدِ انتهاءِ الصكِ ، كي أضمنَ وجوده وأقطعَ على أنطونيو طريقَ الهربِ إذا حاولَ ذلكَ . ولسوفَ أنتزعُ قلبهُ من بينِ جنبيهِ .

ورَكضَ خارجاً يقطعُ أزقة المدينةِ وساحـاتها كالمجنونِ .ولمحهُ سولانيو وسالارينو اللذانِ كانا قدْ علما بالكارثةِ ، فتوقعا شرّاً لأنطونيو على يد هذا الخبيثِ الذي يجيدُ انتهازَ الفرصِ واستغلالها. كانا يعرِفانِ أنه لا رادعَ لهُ من ضمـيرٍ ولا وازعَ له من دينٍ فكانَ الشيطانَ ساكنٌ كلَّ اركانِ نفسهِ الشريرةِ .

عرّج شايلوكُ على صديقَي انطونيو ليتشفىّ منهما ولوّح كفيهِ في الهواءِ وهوَ يصيح :

ـ ليدعُوني بعدَ اليوم انطونيوكم ذاكَ مرابياً !



شايلوك يرسم في ذهنه
مصير انطونيو

ليقرضَ المالَ بلا فائدةٍ !! كم صفقةٍ رابحةٍ أفسدَها ذاكَ المبذّرُ الذي يختالُ كالديكِ في مجلسِ التجارِ ! أبلغاهُ أنْ يستعدَ لشروطِ الصكِ حرفاً حرفاً .

وضحكَ ضحكاً غريباً وهوَ يبتعدُ عنهما فيما ظلَّ سالارينو وسولانيو جامدَين في مكانيهما وقدْ استولى عليهما الذعرُ والدهشةُ .

*

كانتْ بورشيا تنتظرُ بفارغِ الصبرْ موكبَ بسانيو بعدَ أنْ عادَ رسولُهُ المهذّبُ ليُعلمهُ بإذنها لاستقبالِهِ . وكانت هي تدقُ الأرضَ بقدمِها لفرْطِ قلقها ، وتذرعُ مدخلَ قصرِها جيئةً وذهابا . وكان في نفسِها هاتِفٌ يدقُ أجراسه السماويةَ وينقلها إلى فردوسٍ سعيدٍ فتتخيلُ نفسها وهيَ تسيرُ إلى جانبِ بسانيو فوقَ أحدِ المروجِ الخضراءِ . ها هيَ تسرقُ النظرَ من محياهُ المشرقُ كشمسِ صباحِ الربيع. وها هي من حولها ملايينُ الأزهارِ وأوراقُ الشجرِ تهللُ لسعادتها . وحتى النسيمُ أصبحَ أكثرُ رقةً ولطفاً. لم تستطِعْ بورشيا أنْ

تتصورَ وجه بسانيو بتقاطيعهِ الكاملةِ. كانتْ تحاولُ جمعَ صورتهِ في ذهنها ، لكنّها لم تتخيّلْ سوى طيفِ البسمةِ الساحرةِ التي يتحلّى بها . لقد كانتْ تحسُّ من أعماقِها أنها تحبهُ ، فهذهِ هي المرةُ الأولى التي لا تقوى فيها على الصبرِ وهي تنتظر حضورَهُ . ان أزهارَ حديقتِها وأشجارِها وطيورِها تتحركُ .. وهي تحس سِحرَ حركاتِها ، وتشعرُ بكل زهرةٍ تتحدثُ بلغةٍ مغايرة لأختِها .

إنَّ بورشيا للمرةِ الأولى تُحس بالسعادةِ تنبعثُ مِن أعماقِها وتُغرقُ نفسها ببهجةٍ لا حدودَ لها . كثيرٌ من الأمراءِ والملوكِ قدموا وجرّبوا حظهُم ، فلم تكلّفْ نفسَها عناءَ استقبالِهِم أمامَ بوابةِ قصرِها.. ولكنّها هذهِ المرةَ تجدُ نفسها مشدودةً إلى الذهابِ حتى إلى الميناءِ حيثُ ترسو سفينةُ بسانيو ، لتستقبلهُ ثم تسيرُ إلى جانبهِ حتى يبلغا قصرَها البديعَ .

وكانَ كلّما علا على أفقِ الطريقِ طيرٌ أو عابرُ سبيلٍ قامتْ بورشيا على رؤوسِ أصابعِ قدميها وهي تحسبه

وكبُ بسانيو . وأخذَ الزمنُ يمضي ببطءٍ ، وليسَ على الطريقِ المشجّرِ الجانبينِ بالسنديانِ غيرُ عصافيرٍ وطيورٍ تلهو .

وأخيراً ظهرَ المنتظَرُ ..

أطلّ بسانيو ممتطياً جواداً أبيضَ على رأسِ حشدٍ من المرافقين إلى جانبِ صديقهِ جراتيانو . كانَ الموكب يسيرُ ببطءٍ ، وصوتُ وقْعِ أقدامِ الخيلِ يُسمَعُ صداهُ إلى الأبعادِ . وكانَ كلما اقتربَ الموكبُ من قصرِ حسناء بلمونت زادتْ دقاتُ قلبها بسرعةٍ

تقابلَ الحشدانِ وتقدّمْ من كل مجموعةٍ سيدُها . فهنا بسانيو مدّ ذراعيه وأسرعَ الخُطى . وهذهِ بورشيا تمدّ عُنقها كالغزالةِ وهي تهرولُ للقائهِ .

أمسكَ بسانيو أناملَ بورشيا برفقٍ وقبّلها بحرارةٍ . وأحسّتْ بورشيا بارتعاشةٍ هزتْ جسدَها كلّه . وشعرتْ انها تكادُ تطيرُ فرحاً . وعندما تابطتْ ذراعَ بسانيو شعرتْ أنها ترتفعُ عن الأرضِ من فرطِ سرورِها . وخشيتْ بورشيا أن يُفقدَها الاختيارُ حبيبها

فاشارتْ إلى وصيفتها أن تقومَ بواجبِ الضيوف المرافقين ، وانفردتْ هي ببسانيو تتمشى إلى جانبهِ في حدائقِ قصرِها الغنّاء. كانتْ تنظرُ إليهِ بين الحين والحينِ وهي تكاد لا تصدّق ما ترى ، فيطفحُ الدمعُ في عينيها . وكان بسانيو لا يُصدّق ما يرى ، إذ كان يخشى أن لا تبادله بورشيا العاطفةَ فيذوبُ حُزناً وألماً. كانَ يكتفي في السابقِ أنْ يحْلُمَ بنظرةٍ من مفاتنِها، ثم لا باس أن يحترقَ بعدَها كالفراشةِ .. اما الآن فها هي كلُّها إلى جانبهِ ،وهي فوق ذلكَ تُبادلهُ العاطفة .

وجلسا إلى منضدةٍ خشبيةٍ كانتْ ملقاةً في الحديقةِ . وجعلَ أحدُهما يتاملُ الآخر برهةً غيرَ وجيزةٍ قطعتْها بورشيا وقالت :

ـ أرْجو أن تتمهلَ يا عزيزي . إنتظرْ يوماً أو يومينِ أو أكثرَ قبلَ أن تغامرَ لأنني لنْ أطيقَ الحياةَ إذا خسرتُك .

قالتْ بورشيا ذلكَ وهي تتمنى من قرارةِ نفسها أن يوفّقَ في الاختيار ، إذْ لمْ يكُنْ في مقدورِها أن

تتصور فشله مثل الآخرين . وكانت مستعدة أن تقترف المعصية وتحنث بيمينها إذا فشل في اختيار الصندوق المناسب .

وكان بسانيو ينظر إلى عينيها الخضراوين وهو في أعماقه يعاني ألوان العذاب ، فتندفع الرغبات العنيفة إلى رأسه وتلح عليه ألا يطيل فرصة الانتظار. لذا وجد نفسه بغير وعي منه ، يسألها قائلاً :

ـ أتيحي لي فرصة الاختيار يا بورشيا، ففي أعماقي نار محرقة .

ـ أنا أخشى عليك من القلق. فأنت مضطرب ، والاضطراب يشل عليك صفاء ذهنك. وهكذا فقد تختار ما أخشاه . إطرح قلقك الآن تحت قدمي يا بسانيو لترتاح نفسك ويهدأ بالك .

ـ إني أحبك يا بورشيا ، أحبك ملء الآفاق والمحيطات فدعيني أواجه حظي وهذه الصناديق الملعونة .

ـ هلم إليها إذن ! إن صورتي مغلفة في أحدها فإذا كنت تحبني اهتديت إليّ.

ثم ناولته يدها وسارا إلى داخل القصر بصمت وهدوء.

كانت بورشيا تشد بسانيو إلى التساؤل وهو يسير بجانبها : أين تنشأ العاطفة ! أفي القلب أم في العقل ؟ وكيف الحب ؟ هل يولد في العينين ثم يتغذى بالنظر إلى أن تأتي النهاية ويموت ؟ أم أن إله الحب يطلق سهامه فيعشق الانسان كما تشاء الأسرار الإلهية؟.. فلا تنطفىء نار العاطفة ما دامت الحياة تسري في العروق !!

وتوالى حشد الأفكار دفعة واحدة إلى مخيلة بسانيو فأضحى أشبه بمحكوم بالإعدام ، يرتفع على درجات منصة المشنقة . إنه في عذاب مرير . وان أكثر النساء زينة هي أكثرهن خفة للعقل .

*

في مكان آخر من القصر انفرد جراتيانو بالوصيفة تيريز وراح يبثها حبه ويقبل راحتيها ويسمعها أعذب الأشعار الغزلية وأجملها . وقد ظلا على هذه الصورة ، ولم تفق تيريز من حلمها إلا والخادمة تناديها وتعلمها أن سيدتها تبحث عنها وتطلب حضورها .

أشارت بورشيا بإصبعها إلى غرفة الاختيار دون أن تنظر إليها وقالت :

ـ هناك ستجد الصناديق ، وعليك الآن أن تتلو القسم كما يفعل الغير ، أمام الحضور .

فاقسم بسانيو على عجل أمام الحضور وهرول إلى الغرفة وبورشيا تجر قدميها وراءه جراً.. وعندما وقع نظره لأول مرة على الصناديق الثلاثة ، شعر ان الموقف صعب ، وان الاختيار اصعب من أية معركة يمكن أن يخوضها . هناك أدرك أن الأمر يتطلب شجاعة وحكمة وجرأة

نظر بسانيو إلى الصناديق واحداً بعد الآخر ، وقرأ العبارات المحفورة على كل منها وأخذ يدعو الوحي أن يهبط عليه من السماء .فتطلع إلى الصندوق الذهبي وكان هاجساً في أعماقه يقول : « أنا لا أبتغي منك شيئاً أيها البراق » .

وأشاح بوجهه عنه وكانه يتذكر أن جميع قصور الاباطرة الذين لم تعرف الانسانية قلوبهم ،عبر التاريخ الطويل ،كانوا يموهون نذالتهم ببريق الذهب الخادع .

والتفت إلى الصندوق الفضي فارتسمت على فمه بسمة احتقار وازدراء .وتذكر كيف يقتتل الأغبياء من أجل الحصول على هذا المعدن الذي لا يعرف له صاحباً ولا صديقاً .

وتطلع إلى الصندوق الرصاصي المتواضع الذي كان وجوده إلى جانب الصندوق الآخر نشازاً ، أشبه ما يكون بوجود فلاح فقير في قصر ملك طاغية ينهب شعبه ليزين قصره بالأثاث الفاخر وقرأ بسانيو العبارات المحفورة على صدر ذلك الصندوق ، فوجدها تفور بالثورة ، فهي تهدد وتتوعد وتتحدى ولا تعد بشي . فتذكر الناس البسطاء الذين لا يعرفون غير الحقيقة في حياتهم المتواضعة .وذكر كيف أن هؤلاء يطلقون الأشياء على سجيتها بلا زيف ولا كذب أو نفاق . وهكذا وقع خياره على الصندوق الرصاصي فهتف :

ـ إلي بمفتاح الصندوق الرصاصي .

فناولته بورشيا المفتاح على عجل وهي تكاد تطير فرحاً .وفتح بسانيو الصندوق ، فإذا في داخل الصندوق

صورةٌ صغيرةٌ لبورشيا مرسومةٍ بيد فنانٍ من مدينةِ فلورنسةَ الجميلةَ .

وكان مجموعةً من الملائكةِ سكبتْ نورَها على قلقِهِ الأسودَ وأذابتْه ، فشهقَ بساذو هواءَ الصندوقِ وملأَ صدرَه مثلَ شراعِ سفينة . كانَ لا يريدُ ان يفرّطَ بتلكَ الأنفاسِ التي ظلّتْ فترةً طويلةً تغرقُ صورة بورشيا . الآن زالتْ كلُ انفعالاته وكابوسُ همّه فلمْ يرفعْ نظره عن الصورة . إنه لا يكادُ يصدقُ .. لقد نجح . لقد كانتْ صورةُ بورشيا دقيقةً جداً وجميلةً جداً . بل لقد أضافَ الفنانُ من روحِهِ الفنيةِ الجزء الساحرَ في جاذبيةِ الصورةِ فاضحتْ الصورةُ آيةً من آياتِ الجمالِ والفنِ .

وعندما استفاقتْ بورشيا من استغراقةِ بهجتِها ولاحظتْ نشوةَ بسانيو خشيتْ عليهِ من ذلك ، كما خشيتْ على نفسِها أيضاً ، فقالت :

ـ مهلاً يا بسانيو ، فما أنا إلا فتاةٌ ناقصةٌ في العلمِ والخبرةِ ، ومن حسنِ حظها أن السنّ لم تتقدمْ بها كثيراً .

استيقظَ بسانيو من حلمِهِ الجميلِ وقدْ وجدَ نفسَهُ الفائزَ في تلكَ المباراةِ التي استغرقت أعواماً ، وسحقتْ خلالها عشراتٍ من الأمراءِ والأعيانِ . فتناولَ الرسالةَ التي في الصندوقِ على عجلٍ وأقبلَ على بورشيا وبلّلَ ثيابَها بدموعِ الفرحِ .

وهمستْ إليهِ قائلةً :

ـ أنتَ تراني في صورتي الحقيقية . ولو أن الأمرَ كانَ مقصوراً عليّ وحدي لما رغبتُ أنْ أكونَ أحسن مما أنا . أما مِنْ اجلكَ فانا أودُّ لو كنتُ أفضلَ مما أنا عليهِ ألفَ مرةٍ .

فاجابَها وهو بحالةٍ من الذهول :

ـ أنتِ أجملُ حسناء في الدنيا وأندرُ درةٍ في الوجودِ ، وسافعلُ كلَّ ما أستطيعُ من أجلِكِ .

مضى وقتٌ غيرُ قصيرٍ وبسانيو وبورشيا تَغمُرُهما السعادةُ الكاملةُ حتى كانَ الحشدُ كلهُ قدْ وفدَ إلى غرفةِ الاختيارِ ليشهدَ ذلكَ الموقفَ المؤثرَ . واستفاقَ العاشقانِ ليجدا نفسيهما محاطين بتلكَ الجمهرةِ من الناسِ .

وقالتْ بورشيا لبسّانيو على مَسْمعٍ من الحضور :

ـ فاتَكَ يا عزيزي أنْ تقرأ الرسالةَ ، فهيَ خلاصةُ حظّك .

فتحَ بسانيوالرسالة وأخذَ يقرأُها بصوتٍ جهوري:

« أنتَ أيهـا الرجل الذي لا ينساقُ في اختيارهِ وراءَ الطلاء الخارجي . لكنْ حظكَ باهراً واختيارُك سديداً . ما دمتَ قد أصبْتَ هذا الحظ العظيم فلتكنْ قنوعاً ، ولا تبحث عن سواه ، فاذا قرنْتَ يمينك بهذا وأدركتَ أنك حققت بهِ أقصى مـا تصبو إليهِ من سعادةٍ فتوجّـهْ إلى بورشيا واستأذنهـا في قُبْلةٍ صادقة » .

ضج الجمهور فرحاً وهتف :

ـ يا لها من رسالة رقيقة ؟! .

وسرتْ في الحضورِ حركةٌ ناشطةٌ وعلا الصخبُ ودارتْ الكؤوسُ .ثم مدّتْ الموائدُ السخيةُ وعُقِدَتْ حلقاتُ الرقص،وعصفتْ بالقصرالحزينِ رياحُ السعادةِ فاطربتْ كلّ من حواهُ،حتىالكلابُ والقططُ والقرود .

ورفعتْ بورشيا كأسَها عالياً فهدأتْ الضجةُ فقالت :

ـ أنتَ يا بسانيو العظيمْ مولاي ، وسيدي . وأنا منذُ اللحظة ومالي ملْكُك ـ لقدْ كنتْ قبلَ لحظةٍ سيدةَ هذا القصرِ الجميل ومولاةَ خدمِهِ ومالكةَ أمره، وفي هذه اللحظة صارَ القصرُ وهؤلاءِ الخدم وأنا نفسي مِلكاً لك يا مولاي . إني أهبكَ هؤلاءِ جميعاً مع هـذا الخاتمَ الذي أوصيكَ ان تحفظهُ ، فإذا فرّطتَ فيهِ أو فقدتَهُ أو تنَزلْتَ عنهُ لأحدٍ فذلكَ نذيرٌ بانتهاءِ حبك لي مما يبرّر لي الشكوى مِنْك .

فردّ بسانيو وقدْ رفعَ كاسهُ في الهواءِ وقال :

ـ لقدْ سلبتيني يا سيدتي القدرةَ على التعبيرِ فلأدعْ دمي وحده الذي يجري في شراييني يتحدثُ إليـك . إني أشعرُ باضطرابٍ في أفكاري وأُقسمُ أمامَ الحضورِ أنّ هذا الخاتمَ لن يفارقَ إصبعي ما دُمْتُ حياً .

فَشربَ الحضورُ وطربوا . ولما استبدّتْ الخمرةُ بعقولهم وأكسبتْهـم شجاعةً إلىجانب حبورهم، انطلقَ صوتٌ في البهوِ الكبيرِ يقولُ :أيهاالسادة. أيها السادة .



بسّانيو وبورشيا بعد فوزه بالخطبة

فأفرغَ الجمهورُ وسطَ البهو واصطفّوا على الجنبات فلم يبقَ غير جراتيانو . وقد أمسك بيده اليمنى كأسَهُ وبيدهِ اليسرى يدَ تيريز ، وأردف :

– يا سيدي بسانيو ويا سيدتي بورشيا .. أتمنى لكما كلّ ما تتمنيان لنفسيكما من سعادةٍ وسرورٍ . ومن ثم أستميحُكما عذراً وقد تَوَّجتما بالزواج هذا الميثاقِ الذي عقدتماه بينكما في أن أتزوجَ أنا أيضاً في يوم قِرانكما .

وأكملَتْ تيريز حديثَ جراتيانو الثملِ وقالَتْ :

يا سيدتي ، لقد جاء دورُنا ، نحن الذين وقفنا هنا ورأينا آمالنا تتحقَقُ ، أن نصبحَ متمنّيَيْن لكما كل السعادةِ والهناء . وكما تريانِ أنَّ يدَ الفارس جراتيانو محتويةٌ يدي فارجو أن تُباركا ما تم .

لم يُمهل جراتيانو أحداً لأن يتحدثَ ،بل راحَ يقولُ :

– إن عينيَّ يا سيدي بسانيو قادرتانِ على النظرِ بمثل السرعةِ التي تنظرُ بها عيناكِ . لقد أحببتُ هذه السيدةَ من النظرةِ الأولى كما فعلتَ أنت ولقدْ كانَ

حظك يعتمد على الصندوق ، وكذلك كان حظي . فلقد ظللت أقنع هذه الفاتنة بالزواج مني حتى كاد يقضى علي في سبيل ذلك . وظللت أقسم لها بصدق عاطفتي حتى جف حلقي ، وإلى أن ظفرت بوعد منها بأن تمنحني حبها إذا ظفرت أنت بسيدتها .

وتداول بسانيو الرأي مع بورشيا وقال :

ـ لا شك أن سعادتنا في حفل قراننا ستزداد بزواجكما معنا ! .

قالت تيريز :

ـ هذا خاتمي أعطيه لجراتيانو وأقسم أنه مرتبط بالعهد الذي قطع لخاتم سيدتي بورشيا .

وقال جراتيانو على سبيل المزاح :

ـ لنتراهن على ألف درهم أينا ينجب الولد الأول .

فضحك الجميع وعادوا إلى أفراحهم وطربهم .

وكان قد مضى من الليل ثلثاه . وبعد فترة توزع الحضور في غرف القصر واستسلموا للرقاد فهدأ القصر وساد السكون حتى الصباح .

*

كان صباحاً ندر أن طلع مثله في إيطاليا منذ سنين عديدة . كانت الشمس مثل صينية ذهبية تتالق وسط سماء زرقاء ناصعة لا أثر للسحاب فيها ، وأغصان الشجر وأوراقها شديدة الخضرة قد أكسبها الندى بريقاً وهاجاً أما أعشاب المروج المحيطة بحديقة القصر فقد اشتعلت نهاياتها نوراً بأشعة شمس الصباح الساطعة .

جلس بسانيو إلى جانب خطيبته في أرجوحة جميلة وهي مغمضة جفنيها وسط ذلك الطوفان من الأزهار والورود . وبالفعل كان للحب سلطان إلاهي عليهما وهما في ذلك الوضع السعيد .

بعد برهة وجيزة قدمت رئيسة الخدم ومربية بورشيا تعلن أن بالباب سيدة حسناء برفقة رجلين يرغبون في الحديث إلى السيد بسانيو . وبكثير من الحذر والحياء بلغت المربية الخبر وعادت أدراجها دون ان ترفع نظرها عن الأرض . فنهض بسانيو فوراً ولحقته بورشيا مشدوهة لاستقبال ضيوف قدموا بمثل هذه السرعة وهما ما يزالان في صباحهما الأول .

كان بابِ سالارينو ومعَـهُ لورنزو وجسيكا ، وقد عقدَ الغمْ لسانَ سالارينو فلم يدرِ على أيّة صورةٍ ألقى إلى العروسين التحيّةَ أو كيفَ نظمَ كلماتِ التهاني للمناسبة العظيمة . فأدركَ بسانيو أنّ كارثةً محققة قد حلّت بعزيز له فسألَ بورشيا الإذنَ باستقبالِ أصدقائهِ . ولما رحبتْ بذلكَ وذكّرته انه السيد قال:

– مرحباً بكم في هذا المكان . وإني لأستاذنُ مرةً أخرى عزيزتي بورشيا في الترحيب بصديقي وبمواطني وزوجته الحسناء .

وأجابتْ بورشيا بشيءٍ من الارتباكِ :

– وأنا مثلُك يا سيدي أُرحبُ بهم .

شكرَ الضيوفُ بسانيو على حفاوةِ استقبالهم ومضَوا إلى داخلِ القصر ينفضونَ عن كواهلهم عناءَ السفرِ . وبعدَ انْ هدأ روعه قال لورنزو يعتذر :

– شكراً لكما على حُسْنِ استقبالكما لنا . أما أنا وجسيكا فلم يكنْ هدفنا القدومُ في مثل هذا النهار ، إلا أنني صادفتُ سالارينو في الطريق فالحّ عليّ كثيراً

أن آتي معه . فلم يسعني رفضُ طلبـهِ لما بي أنا أيضاً من شوقٍ إلى رُؤْياكما .

وأيد سالارينو كلامَ لورنزو وقال :

– هـذا ما فعلتُه يا سيدي ، وعندي من الأسباب ما دعاني إلى ذلك . لقد حمّلني السيد انطونيو تحياتِهِ إليكما وأعطاني رسالةً إليكَ أيها السيد بسانيو ، أرجو ان تقرأها على الفور .

ثم أخرجَ الرسالةَ وسلّمها إلى بسانيو فتسلّمها هذا وقد امتقع لونُه في الحالِ ، فلمْ يتمالكْ نفسه أن راح يُمْطِرُ سالارينو بالسؤال عن صحةِ أنطونيو وأخبارهِ. غيرَ أنه ما ارتاح لنبرة سالارينو الذي ختم حديثه بقوله:

– ليسَ هُوَ بالمريض إلا إذا كان عقلُهُ هو الذي يسبّبُ مرضَهْ وليس بالسليم إلا إذا كان عقلهُ يعينه ويواسيه . وقدْ كتبَ لك ما به في الخطاب .

وفي هـذهِ الأثناءِ دخلَ جراتيانو ترافقُه تيريز ورحّبا بالضيوفِ وأخذا أماكنهما في مجلسِ الأصدقاءِ. فسألَ جراتيانو قائلاً :

- ما هي أنباءُ البندقيةِ ؟ كيفَ حالُ انطونيو الطيب ، التاجر النبيل ؟

كانَ سكوتُ سالارينو المشوبُ بمسحةٍ من التأثرِ والحزنِ قد ألقى على الحاضرين كآبةً مجهولةَ المصدر ، وكان وجهُ بسانيو المُمتَقِع سبباً لتدخل بورشيا لتقول:

- هل حصَلَ وماتَ صديقٌ عزيزٌ عليكَ يا حبيبي بسانيو ؟ لا شيء غيرَ هذا قادرٌ على أن يبدّلَ حال رجلٍ مثلك في صباح فرحه الأول . وبإذنك يا عزيزي فأنا نِصفُكَ الثاني ومن حقي أنّ أطالبَ بنصف ما تحمله .

كانَ بسانيو قد تصفّحَ رسالةَ انطونيو بسرعةٍ فناولها إلى بورشيا وهو يقولُ بقلبٍ محطّم :

- آه يا عزيزتي بورشيا ، تلك طائفة من الألفاظ المشئومة قلّما تسودت بها ورقة .

كانَتْ الكلماتُ تغصُ في حلقِهِ وهوَ يتابعُ كلامهُ :

- سيدتي الحسناء ، لقد صارحتُك من قبلُ إني لا أملك سوى ما يجري في عروقي من دماء ، وقد كان من واجبي أن أصرّحَ أيضاً أني قد استدَنتُ بضمانةِ

صديقٍ عزيزٍ مبلغاً من المالِ أقضي به حاجتي، وبذلك أوقعتُ صديقي هذا بينَ براثنِ عدوٌ لدودٍ . وها هي ذي رسالته يا سيدتي كأنها جسَدهُ. كل كلمةٍ فيها جرح نافذٌ يسح منه الدمُ . هذه هي القضيةُ يا بورشيا العزيزة .

- فداكَ وفداه كلُّ ثرواتِ الدنيا . منذ هذه اللحظةِ سآمُرُ بإرسالِ مبالغ مضاعفةٍ لدينِ صديقكَ النبيلِ . إنّ الأمرَ لا يستدعي كلّ هذا الحزن يا بسانيو.

وتنهّدَ سالارينو بتأثيرٍ عميقٍ قائلاً :

- ليتَ الأمرُ في هذه البساطة يا سيدتي . فقد رفَضَ ذلك المسخُ أيّ شيءٍ غير تنفيذِ شروطِ الصك، وهو يكاد لا يفارقُ قصرَ حاكمِ المدينة ملحّاً في طلبِ ما يسميه « العدالة » واقتطاعِ رَطلٍ من اللحم من أيِّ مكانٍ يشاءُ من جسدِ انطونيو . هكذا ينص شرط الصك السخيف . وقد حاول جميع التجار ومعارفه وحتى الحاكم نفسُهُ عبثاً أن يقنعوه بعدمِ تنفيذِ هذا الشرطِ الظالم .

وسكتَ الجميعُ كأنهم أمامَ نعشِ أنطونيو، حتى قطعتْ جسيكا ذلكَ الصمتَ وقالت :

ـ أنا أشعرُ بالخجلِ حينَ أقولُ إنه والدي . لكني أعرفُه أكثرَ من الجميع .. لقد تنصّتُّ إلى حديثٍ جرىً بينهُ وبينَ صديقه الوحيد توبال ، وسمعت توبال يحرّضهُ ويقولُ له : إنه يؤثر أن يصيبه قطعةٌ من لحمِ انطونيو على أن ينالَ عشرينَ ضعفاً المبلغ الذي هو مَدين به .

سمعتْ بورشيا كلَّ هذا وهي لا تُصدقُ أنَّ شرطاً كهذا يمكنُ أن يوقّعَ عليهِ إنسانٌ من أجلِ صديقهِ . فعظُم انطونيو في نفسها فقالت :

ـ إذهبْ يا بسانيو على التوِّ إلى البندقية وألغِ هذا العقد . أنا أجعل تحتَ تصرفك كل أموالي قبل أن يفقدَ صديقٌ لك من هذا النوع شعرةً واحدة من جسمه.ولتتوجه معي أولاً إلى الكنيسة حيث تتخذني زوجةً شرعيةً لك ثم تلحقْ بعدَ ذلك بصديقك في البندقية . فلن تضطجعَ إلىجوار بورشيا وأنتَ تحمِلُ

بينَ جنبيكَ نفساً قلقةً حائرةً . ومتى وفيتَ بالدَّينِ قدِمتَ إلى هنا مع صديقكَ الصدوق .

ثم تناولتْ الرسالةَ تقرأُ عبارتها ودُموعُ بسانيو تهطلُ على وجنتيه : .

« يا بسانيو العزيز لقدْ تحطمتْ جميعُ سُفني وغدا دائنيّ غلاظَ الأفئدةِ ،وحالي في الدَّركِ الأسفلِ . كذلكَ مضى موعدُ الوفاء بوثيقةِ اليهودي وإذا كنتُ لا استطيعُ العيش بعدَ الوفاء بها فقد أعفيتُك مما بيننا من دين ، إذا أنا استطعت رؤيتكَ وقتَ وفاتي . ومع هذا فلتفعلْ ما يُناسِبُكَ . فإذا لم يحملك حبُّكَ على المجيء فارجو ألاّ يحملك عليه هذا الخطاب. »

صديقك : انطونيو

*

ولنعد الآن إلى مدينة الغندولات . إلى البندقية ..

هناكَ كانَتْ شرطةُ الحاكمِ قد ألقتْ القبضَ على التاجرِ أنطونيو بعدَ أن استحصل اليهودي شايلوك على أمرٍ من المحكمةِ بذلكَ . وأُدعَ التاجرُ الطيبُ

السجنَ المركزي في المدينةِ بانتظارِ محاكمتهِ والفصلُ في قضيةِ الصك اليهودي والشرط الذي فيه .

وقد هرعَ سولانيو إلى زيارة أنطونيو في سجنه نظراً لغيابِ معظمِ أصدقاءِ الأخير خارج المدينةفأذن، له الحرسُ بذلك ، فجلسَ إلى جانبه يواسيه .

وفي تلك الاثناء قدم شايلوك إلى بهو السجن يمتعِ نظرَهُ بغريمه انطونيووهو يرسفُ في قيوده، وليدخل الفرحَ إلى ذاته الشيطانية التي تحثّهُ باستمرارٍ على الانتقامِ الشريرِ . كانَ كلّما تذكّرَ الكلماتِ التي كان انطونيو يقذفهُ بها أينما التقى به – سواءً في مجلسِ نقابة التجار أو غيره – ازدادَ شراسةً ووحشية . وكلما تراءتْ أمامَ عينيه الغائرتين تلكَ الصفقات التي خسرها من جرّاء تدخل انطونيو وأقراضه المالَ بدون فائدةٍ – ازدادَ إصرارهُ على انتزاعِ روحه من بين جنبيه .

صاحَ شايلوك على الحرس :

– إنه سجيني أيها السجّان ، فاحذرْ ان يفرَّ منك. هذا هو الأبلهُ الذي كان يقرضُ المال بلا ربحٍ حتى لم يبقَ لهُ مالٌ يُقرضُه .

فردّ أنطونيو من وراءِ القضان :

– أصغِ إليّ مرة يا شايلوك الطيب .

لكن اليهودي أجابهُ دونَ ان ينظرَ إليه :



– ساتقاضى حقي يا صاحبي . لقد أقسمتُ أن أنالَ حقي منك . كنتَ تنعتني دون جريمةٍ اقترفتُها

فاحذرْ الآنَ أنيابي . لقدْ وعدَ الحاكِمُ بإنصافي منك .

ثم أنّبَ شايلوك السجّانَ على تهاونِهِ مع سجينه .

وساله انطونيو مرةً أخرى ان يصغيَ إليه،فاجابَ شايلوك بإصرار :

ـ سأنالُ حقي ولَنْ أُصغيَ لحديثِكَ أنا لا أطالبُ بأكثرَ من الصك ، فلا داعي لإطالة الحديثِ . لن أسمحَ لنفسي أن أكونَ واحداً من هؤلاء الحمقى الذين يهزون رؤوسهمُ عطفاً عليك . كُفَّ عن ملاحقتي فليس لي حديثٌ معكَ .

واغتاظ من هذه المعاملة سولانيو فقال :

ـ لم يُنكَب البشرُ بأبشعَ من هذا النذلِ . انه مجردٌ من أي ذرةِ عطفٍ أو شفقة .

فاكمل انطونيو حديثَ صديقه وقال :

ـ دعه وشأنه ، أنا عليمٌ بالسببِ ،فكثيراً ما أنقذتُ من شِباكه الكثيرين ممن شكَوا منه . لذلك هو يبغضُني إلى هذا الحد .

كان انطونيو يعلم علماً أكيداً أنَّ الحاكمَ لا يستطيعُ

أن يحولَ دونَ تطبيقِ القانون ، فهو لنْ يقومَ ببادرةٍ كهذهِ تُعتبرُ الأولى من نوعِها في « البندقية » . إن ذلك قد يجرُّ إلى الفوضى في الأمنِ العام والاختلالِ في ميزانِ العدلِ ، وخاصةً في بلدٍ كالبندقية ، تعتمدُ في حياتها على التجارة والتُّجارِ بطبعهم الجبان . فايُ اختلال للأمن يجعلهم يهربونَ بأموالهم على أسرعِ حال . وكانتْ هذه القناعةُ تسلبهُ راحتَه طوالَ الأيام التي أُودِعَ خلالها السجنَ .وقد هزَلَ جسمُهُ لعدمِ توفرِ أسبابِ الراحة له حتى باتَ يخشى الاّ يفي لحمه بمقدارِ الشرطِ .

عادَ انطونيو إلى وحدتِهِ القاتلةِ بعدَ أن يئسَ من إقناعِ شايلوك وبعد أن غادره سولانيو .. عادَ إلى جدران السجن التي كانت تَرشَحُ رطوبةً ، وإلى العتمة التي كانت تُلقي ظلالَ الكآبة على السجينِ المنكوب .

ولندع انطونيو في سجنِهِ وننتقلَ إلى قصرِ بورشيا في بيلمونت .

*

٥

في بلمونت تحركت بورشيا بسرعة مدهشة بعد أن غادر القصر زوجها بسانيو وصديقه جراتيانو . فاجتمعت أول الأمر إلى لورنزو وزوجته جسيكا حيث بادر لورنزو يقول لها :

ـ سيدتي ، كان كرماً ونبلاً منكِ ان تمدّي يد المساعدة إلى رجـل لا تعرفين عنه أكثر من كونه صديقاً لزوجك . هذا واللهِ إفصاح عن الإدراك وحسن التقدير ، فلو حصل يوما وقابلتُ سيدي انطونيو صديق زوجك العزيز لافتخرتُ امامه بعملك هـذا أكثر من أيّ شيء آخر .

ـ أنا ما ندمتُ قطُّ على معروفٍ أسديته لإنسانٍ ، معهُ برباطٍ مقدسٍ مدى العمر !؟

ثم أدارتْ بورشيا الحديثَ وجهةً أخرى :

ـ فلنغيّر الحديثَ يا لورنزو الطيب . أنا لم أقابلْكَ من أجلِ الإطراء ، وانما فعلتُ ذلك لأمرٍ في نفسي .

ـ وما هو يا سيدتي ؟

ـ لقد قرَّ رأيي أن أعهد اليك وإلى السيدة زوجك بتدبير شؤون منزلي .

ـ إننا نشكرك على هذا الشرفِ ، ولكن ..

لم تدَعه بورشيا يكمل حديثه ، بل سارعت إلى مناداة رئيسةِ الخدم لتقول لها :

ـ منذ الساعة يصبح كل ما في القصر بإمرة السيد لورنزو وزوجته السيدة جسيكا . إحذري أنْ يحصلَ ما يسيء إلى السيدِ وزوجتِه أثناءَ غيابي .

ثم نظرت إلى لورنزو وأردفت :

ـ أُخفي عليكَ الأمر . لقد عزمتُ أنا وتيريز أن نذهبَ إلى ديرٍ نقيم فيه حيث ندعو ونصلّي لله اثناءَ غياب زوجينا . فلعلّك لا ترفضُ النهوضَ بهذا الواجب الّذي تفرضه عليك الصداقة .

ـ أرجو أن أكون كفؤاً لهذا الواجب ، ولكن ..

ولم تنتظرْ بورشيا جوابَ لورنزو الكامل بل ودّعته ومضَت إلى خادمِ بسانيو زوجها (وكان اسمه بالتازار) . وقد انفردتْ بهذا الخادم في ركنٍ من أركانِ غرفة الانتظار وقالت له :

ـ أودُّ يا بالتازار أنْ أراكَ أميناً لي كما أنتَ مخلص لبسانيو .

ـ أنا أمين يا سيدتي .

ـ دعني أجرّبك الآن لأرى أمانتك .

ثم أخرجتْ كتاباً كانَتْ قد أعدّته لابن عمها المحامي «بيلاريو» في مدينة «بادوا» تطلبُ منه حجةً قانونية تنقذ انطونيو من براثن ذلك المرابي الشرس. كذلك طلبَتْ أن يوكّلها بالمرافعة امامَ محاكِم البندقيةِ نيابةً عنه . وناولت الرسالة إلى بالتازار فيما هي تختم حديثها قائلة :

ـ خُذْ هذهِ الرسالة إلى « بادوا » وسلّمها يداً بيد للسيد بيلاريو . كن أسرعَ من الحمامِ الزاجل ، وإياكَ أن تضيع دقيقةً واحدةً من الوقت . إنّ الأمرَ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. وعندما تعودُ بالجواب نكون أنا وتيريز بانتظاركَ في الميناءِ . تذكّرْ أن حياةَ إنسانٍ أمانةٌ في عنقكَ .

وبعدَ لحظةٍ جهّزَ بالتازار جواداً ركبه وانطلقَ به ينهبُ الأرضَ نهبـاً . فالتفتتْ بورشيا إلى تيريز وقالتْ لها :

ـ تعالي يا تيريز الأمينة . أمامنا عملاً لم أُطلعْك عليه بعد ، سنرى زوجينا قبلَ أن يبدآ التفكير فينا .

ـ وهل هما سيريانِنا ؟

ـ دون شك ، ولكن دون أن يعرفا من نحن .

لم تصدّقْ تيريز ما تسمعُ ، فأخذتْ تسألُ بورشيا ن تبوحَ لها بما تخبئه . وحينَ لاحظتْ بورشيا ذلك ، شرحتْ لها الخطةَ كلَّها. لقد أبلغتْها أنهما ستتنكّران في هيئةِ شابين من بادوا . ثم أخذتْ تتبجحُ ممازحةً كما يفعلُ الشبانُ الأغرارُ وتقولُ : « سنكونُ أكثرَ جرأةً وأكثرَ رشاقةً عندما نتمنطقُ بخناجرَ قصيرةٍ ، ولسوفَ أتحدَّثُ بصوتٍ عالٍ رفيعٍ، مثلَ أي مراهقٍ ، عن المشاجراتِ التي سوف أخترعها من مخيلتي . كذلكَ سوفَ أتحدث أمامَ الجميع عن غرامياتي الوهميّة وأقسمُ مثلَ الشبان ان عشراتٍ من الفتيات العذارى انتحرن

بسببي . وبلا مبالاة سوفَ أضع المسئوليةَ عليهن وحدهُنَّ .

وضحكتْ بورشيا وهي تختمُ حديثَها بينما وقفتْ تيريز حائرةً تكاد لا تصدّق أذنيها . كانت تخشى أنْ يكشفَ زوجُها السليطُ اللسان لعبتهما،فيفسد الخطة كلها .. وتحدثُ الفضيحةَ . أما بورشيا فكانت تنوي أن تقومَ فعلاً بما صورّته . لذلكَ نجدها كانتْ قد أعدّت العربَةَ أمامَ بابِ الحديقةِ . وبعدَ أن تنكرتْ هي وتيريز بزيِّ الفتيان ، ركبتا العربةَ وغادرتا إلى الميناء تنتظرانِ عودةَ بالتازار .

وإذا كانَتْ بورشيا قد فارقَتْ القصرَ ، فإن لورنزو قد بقيَ فيه . إنهُ باتَ سيدهُ في الوقتِ الحاضر ، فلماذا لا يتفرجُ عليه أولاً !!

*

أخذَ لورنزو يجولُ في غرفِ القصرِ وحدائقهِ ثم ينزلُ إلى قبوهِ التاريخي ويتأمل ممراته العجيبة. وبعدَ ذلكَ صعدَ إلى الحدائقِ حيثُ أخذَ يتمشى في ممراتها ويُطلقُ

المياهَ من أفواهِ التماثيلِ المنتصبةِ وسط البرك . وجذبته أزهارُ الحدائق.. فجعلَ بينَ وقتٍ وآخر يقطفُ زهرةَ يشمُّها ، وطوراً يُرهبُ طيراً في قفصٍ جميلٍ..

كانَ قصرُ بورشيا آيةً في الجمالِ وقبلةَ انظار زوّار بلمونت علاوةً على شهرةِ بورشيا وفتنتِها .

وبينما كانَ لورنزو مفتوناً بالقصرِ وحدائقِهِ كانَ لونسلو - الخادمُ السابقُ لوالدِ جسيكا والخادمُ الحالي لبسانيو - قد جلسَ إلى جسيكا يجاذُبها أطرافَ الحديث. وقدْ صبّ كل غضبِهِ كلهُ على اليهوديةِ كدينٍ تجاري ليس فيه أيّة قيمٍ أخلاقية. لماذا ؟ لأنه كانَ متأثراً بسلوكِ شايلوك تجاهَ انطونيو ، فبادرَها يقول :

- لقد كنتُ معكِ على الدوام واضحاً وصريحـــاً . وأنا الآن أرى أنكِ هالكةً في روحِك لا محالةَ ، ومع ذلكَ فهناك أملٌ غير مشروع .

وردت جسيكا بسذاجة الاطفالِ تسألُ عن ذاكَ الأملِ ولو كان غير مشروعاً . فأجابها لانسلو :

- الحقّ أنه ربما جاز لكِ ان تنتمي ... لو لم يكن

أبوكِ قد جاءَ بكِ إلى هذا العالم ، أي لو أنك لم تكوني ابنة اليهودي .

- حقاً ، يا لهُ من أملٍ غيرَ مشروعٍ . لكنْ لماذا أهلِك أنا بسبب خطيئة والدي ! . هـــذه سخافة .

قالَ لونسلو وهو يتصنعُ الجدّية :

- إني أخشى عليكِ إذن ان تكوني ملعونةٌ من حيثُ الأبِ والأمِ معاً .

- عند ذاك سينقذني زوجي ، فلقد غيّرتُ ديني وبفضلهِ صرتُ نصرانية .

تململَ لونسلو قليلاً ولم يُحِرْ جواباً، بل هزَّ رأسَهُ كأنه يسخرُ من قولها ، وخطرتْ له فكرةٌ مضحكة ورَدَتْ إلى رأسِهِ تقولُ : ماذا ! إذا زاد عدد النصارى على هذا الشكل فلا بدّ عند ذاك أن يرتفـــعَ سعرُ لحم الخنزير . وكل هـــذا بسببِ امثـــالِ لورنزو الذينَ يتزوجونَ اليهوديات . »

في تلكَ اللحظةِ قدِمَ لورنزو من جولتِهِ ، فوجدَ جسيكا قد امتقـعَ لونُها . لم يكنْ يدري عن الحديثِ

الذي جرى بينها وبين لونسلو فبادر بعبارة مرحة يقول :

– سوف أغدو غيوراً منك يا لونسلو إذا ما أسرفت في الحديث إلى زوجتي على انفراد . أليس كذلك يا جسيكا ؟

– كلا ، ليس هناك ما يدعوك إلى ذلك ، فانا ولونسلو على خلاف في الرأي .

– أي رأي ؟

– هو يقول إني لن أجد الرحمة في الآخرة لأني يهودية وربما يفكر بانك لست عضواً صالحاً في المجتمع المسيحي بسبب من زواجنا .

لم يرد لورنزو على كلام جسيكا وتخيل انه لو سارت الأمور على مثل ما يفكر به هذا الأحمق لأصبح من العسير أن تحترم كلمات العدل والحق ، ولساد المجتمع ببغاوات من أمثال لونسلو . لذلك أمره بالانصراف والاهتمام بإعداد عشاء فاخر . أما هو فقد لف ساعده حول خصر جسيكا وقال لها :

– هيا نتنشق هواء عليلاً في حديقة القصر ، فالوقت ما زال مبكراً للتفكير في الآخرة .

*

سار لورنزو وجسيكا متخاصرين إلى مقصورة خشبية في الحديقة أحاطت بها الأزهار حتى أخفت قضبانها عن الأنظار . وبعد أن جلسا هناك سألها رأيها في السيدة بورشيا ، وانتظر أن يسمع رأياً في جمالها ورجاحة عقلها . فأبدت جسيكا إعجاباً شديداً بشخصية بورشيا وختمت رأيها بقولها :

– الحق انه لو تراهن إلهان في السماء على امرأتين من نساء الأرض احداهما بورشيا ، لوجب أن يكون ثمة شيء آخر يضاف إلى الثانية ، لأن هذه الدنيا لم تنجب لها نظيراً .

فعلق لورنزو على كلامها وقال :

« حقاً إنها نموذج للزوجات بقدر ما هي نموذج للأزواج » .

ثم عادا إلى داخل القصر وهما على أسعد حال .

٦

كانَ نبأُ انعقادِ المحكمةِ في البندقيةِ لمحاكمةِ انطونيو من أجلِ النظرِ في ذلكَ الشرطِ العجيبِ الغريبِ قدْ انتشرَ في المدينة انتشارَ اللهبِ في القشّ . فامتــلأتْ ساحةُ المحكمة الواسعةِ فضلاً عن أروقَتِها وقاعاتهاحيثُ حُشرَ النــاسُ حشراً . وقــد أصبحَ شاغلَ كل فردٍ في البندقيةِ معرفةُ أخبارِ المحاكمة وسيرِ وقائعها .

دَخَـلَ الدوقُ وبعضُ الأعيانِ من مدخـلٍ جانبي فضربَ حاجبُ المحــكمة كعبَ عصاه البرونزي على الغرفَةِ الخشبي وصاح : « محكمة !! » .

نهضَ جميعُ الحضور حاسري الرؤوس احتراماً وتبجيلاً ، وظلوا صامتين إلى أنْ جلسَ الدوقُ الذي يمثلُ دورَ الحاكمِ ، ولحقَـهُ النبلاءُ الذينَ كانوا يقومونَ بدورِ

مجلس المستشارين . وجلس الجميع وعيونهم شاخصة إلى المنصة ، تحصي حركات وسكنات الهيئة العليا .

ضرب الدوق المنصة ثلاثاً بمطرقة خشبية معلناً افتتاح الجلسة . ثم اشار إلى كاتب المحكمة أن يدون كل ما يجري هنا . ثم أخذ يقلب أوراق القضية التي أمامه

وكان الحاكم رجلاً مترهلاً ضخم الجثة كبير الرأس منتفخ الوجه والوجنتين . وقد تدلت شحمتا عينيه ورسمت فيهما تعبيراً بارداً كمن يداعبه النعاس بلا انقطاع . وهتف دون أن يرفع نظره وهو يطالع نصوص الصك ويهز رأسه قائلاً :

ـ هل انطونيو هنا .. ليتقدم .

تقدم انطونيو إلى حيث أشار الدوق وقال :

ـ إني رهن إشارتكم يا سيدي .

قال الدوق بصوت رزين :

ـ إني آسف لما أصابك وأنت تواجه خصماً عنيداً لا أثر للرحمة والإنسانية في قلبه . وقد تأكدت ذلك بنفسي.

أجاب انطونيو :

ـ أشكر لسموكم نبلكم ، وإني صابر لملاقاة حقده وما يجيء به من استبداد .

وهتف الدوق :

ـ ليتوجه من يدعو اليهودي للمثول أمام المحكمة .

جر شايلوك قدميه وراح يدفع الناس من أمامه حتى وقف حيث أشار الدوق . وعندئذ توجه الدوق بكلامه إلى شايلوك في محاولة أخيرة ، طالباً منه أن يعيد النظر في رأيه ويستلهم ضميره قائلاً :

ـ إن الناس كلهم يظنون يا شايلوك ـ وأنا معهم في ذلك ـ أنك ستمضي في هذا الضرب البغيض من الحقد حتى آخر الشوط . وهم يظنون أنك حينذاك ستظهر شفقتك ورحمتك على نحو أعجب مما تتظاهر به من قسوة عجيبة . وستأخذك الرحمة الانسانية والعطف وتلقي على المدعو أنطونيو نظرة جديدة، لما أصابه من الخسائر الفادحة فتعفيه من دينك. ونحن نرقب منك جواباً رقيقاً أيها اليهودي .

ورد شايلوك بصوت أشبه بزمجرة وقال :

ـ لقد صارحت سموكم بما أهدف اليه،وقد أقسمت بسيفنا المقدس أن أنفذ الصك بحذافيره . فاذا

أنكرتم هذا فلتقع مخالفتكم لأنظمة مدينتكم وحرياتها على كواهلكم .

ثم سكت برهة واستطرد :

ـ ولسوف تسالني لِمَ أفضّل الظفر بقطعة من اللحم الفاسد على ثلاثة آلاف دوقية . إنه مزاجي يا سيدي الدوق .. وأنا حرٌّ فيما أفعل . سوف أمضي في قضية خاسرة ضد من أضمر له البغض وأحقد عليه أشدّ الحقد .

ثارت ضجّة عارمة في صفوف الحضور على اليهودي الوقح الذي تجرّد حتى من الخجل في الإفصاح عن نفس دنيئة لم يعثر الناس على أخبث منها .

سال بسانيو الكلام من الدوق فاذن له ، فوجّه حديثه إلى شايلوك وقال :

ـ أفيقتل الناس كل ما يكرهون ؟

رد شايلوك :

ـ أيكره الانسان فيما لا يرغب في قتله ؟

ومرّة أخرى ثار الحضور غضباً من هذا التطاول

الوقح ، ومنهم من استحث الدوق لأن يضع حداً لهذه الوقاحة التي لم يشاهد لها مثيل في أي بقعة من بقاع الدنيا . ومنهم من طالب برأس اليهودي جزاء لشراسته وخبثه . ومنهم من أصرّ على إحراقه لأن شيطاناً زنديقاً يسكن جسده ويوجهه .

هنا ضرب الدوق بمطرقته وطالب الحضور بالسكوت وعدم إثارة الضوضاء ، وذكّرهم أن من حقه أن يقفل باب المحكمة دونهم إذا استمروا في الشغب ، وأن المحكمة لا يهمها غير الحق والعدل .. ولن تاخذ بغير هذين الاعتبارين .

استطرد بسانيو حديثه وقال :

ـ ليس ضرورياً أن تؤدي كل إساءة للكراهية.

فأجاب شايلوك :

ـ ماذا تقول ! أتسمح لثعبان أن يلدغك مرتين ؟

وهنا تدخل انطونيو وقال :

ـ أرجوك يا بسانيو أن تتذكر أنك تناقش يهودياً. إنه لأسهل عليك أن تطلب من الذئب الجائع أن يبقي

على حياةِ شاةٍ بينَ مخالبِهِ من أن تلين قلبَ يهودي.
رجائي ألا تعرضَ عليه شيئاً بعد الآن .

ثم وجّه حديثَهُ إلى الدوقِ طالباً منه أن يُسرِعَ بإعلانِ القانون وإن يُجريَ الحكمَ وفقاً له ولْيظفر اليهودي بمرامه .

ولكن بسانيو تدخل مرة اخرى وقال :

ـ إليك بستة آلاف دوقيّة مقابل آلافك الثلاثة .

ردّ شايلوك وهو يصك أسنانه لؤماً :

ـ لوْ ان كل دوقيةٍ من هذه الآلاف الستة قُسّمت ستة أقسام وصار كلٌ منها دوقيةً لما رضيتُ بذلك أبداً..
أنا لنْ أطلبَ غيرَ العدلِ في تنفيذِ القانون .

قال الدوقُ بعد أن سمع ذلك الإصرار العنيد :

ـ كيفَ ترجو الرحمةَ وأنتَ لا تُظهرَ شيئاً منها؟

ردَّ شايلوك قائلاً :

ـ وأي حكمٍ أخشاهُ ما دمتُ لا أظلم أحداً !؟ ان لكثيرٍ منكم عبيداً اشتريتموهم بدوقياتكم وتستخدمونهم كالدواب ... لأنكم دفعتُم مالكم كثمنٍ لذلك . فهل

أستطيعُ أن أقولَ لكُمْ حرّروا هؤلاءِ العبيدِ ودعوهم يتزوجون مِنْ ورثتكم ؟!

تململَ مستشارو الدوق في كراسيهم معربين عن استيائِهِم من هذا الكلام الذي فيه تطاول عليهم . ولكن شايلوك لم يهتم لذلك بل استطرد يقول :

ـ وأنا أيضاً اشتريتُ رطلاً من اللحم بثمن باهظ ، وهو حقي ، وسأناله. وإذا أبيتم عليّ ذلك فسيلحقُ العار بقضائِكمْ ولن تزدهرَ البندقيةُ بعدَ اليومِ ، ولنْ يأمنَ ظلمَها أيُّ تاجر .

*

وفي تلكَ اللحظةِ أعلنَ الحاجبُ أنّ بالبابَ فتى يدّعي أن لديهِ رسالةً يقدمها للدوق ، وهي هامة . فأذن الدوقُ للغلامِ أن يتقدمَ اليه . ولم يكنْ الغلامُ القادمُ غير بورشيا وقد تنكرت حتى باتَ يصعبُ كشفها حتى على بسّانيو زوجها . وتقدّمت بخطى ثابتة إلى مواجهةِ الدوق . فسألَ الدوق :

ـ أقادمٌ أنتَ أيها الفتى من عندِ العالِمِ بيلاريو ؟

واجابت بورشيا وهي تحاولُ ان تخفي اللّكنة النسوية من صوتها وقالت :

– نعم يا مولاي . إن العـالِم بيلاريو يبعثُ إلى سموكم بتحيـاتهِ .

ثم ناولت الدوقَ رسالةً وتراجعت إلى الوراء .

وبينما كان الدوق مشغولاً بفضّ ختم الرسالة وقراءتها كانَ شايلوك يشحذ سكّينه على نعلِ حذائـهِ . وكانت كل أنظارِ الحضورِ تراقب سكينَ هـذا الصعلوك . فلم يتمالك جراتيانو نفسه إلا أن يقول :

– اشحذها على نياطِ قلبكَ السامةِ . مـا أشبهَ روحَكَ بروح ذئب شرير !

أجاب شايلوك بحرارةٍ :

– ما دمتَ لا تستطيعُ انتزاعَ الخاتم من صكّي ، فكل ثرثرتِكَ لا تؤذي سوى رئتك .

هتفَ الدوقُ وهو يطرقُ الطاولةَ مجدداً وقال :

– ان هذا الخطاب القادم من السيد بيلاريو يوصي الحكمة بعالِم شاب . ولا يسعُنا إلا أن ننزل عند رغبةِ العالِم الجليل .

فتقدمَتْ بورشيا وهي في هيئتِها التنكرية ووقفت أمامَ هيئةِ المحكمة وحيتها باطيبِ تحية وقدّمت نفسها ثم أخذَتْ مكانها، بينما أخذ كاتب المحـكمة يقرأ رسالة العالِم بيلاريو :

« ستدركون سموكم أنني تلقيت خطابَـكمُ وأنا مصابٌ بمرضٍ شديد. بيد أني في اللحظةِ التي وصل فيها رسولكم كنتُ متشرفاً بزيارةِ عالمٍ شابٍ من اصدقائي في روما . وقد أطلعته على سر النزاع القائم بين التاجرِ انطونيو واليهودي ، وراجعْنا معاً الكثير من الكتب ثم زوّدته برأيي المدعّم بعلمهِ الغزير الذي لا أستطيعُ أن أفيَـه حقه من الثناء ، والذي يحملهُ اليكم بعد ان ألححْتُ عليـه في انْ يقومَ مقـامي في أداءِ المهمة التي شرّفتموني بطلبها إليّ . لأرجوكم ألا يكونَ صِغَر سنه حائلاً دونَ ما يستحقهُ من تقدير . واني لأبعثُ به موقناً انهُ سيحظى لدى سموكم بالقبول الحسن. وواثقاً من أن تجربَته ستكونُ أبلغَ تزكيةً لشخصهِ . »

تطاولت أعناقُ الحضورِ لترى وجه الشاب الذي

نالَ كلٌّ هذه المـــكانةِ من العالِمِ الذائع الصيت بيلاريو . ولم يَسَعْ الدوق إلا أن رحبَ به مجدّداً . وقد ارتجّت أركانُ الغرفةِ من همهماتِ الإعجابِ التي اطلقها الحضُورُ . وقطعها الدوق قائلاً :

– مرحباً بك أيها الشاب. أعالِمٌ أنت بالخلافِ المثارِ الآن أمامَ المحكمة ؟

أجابتْ بورشيا :

– اني محيطٌ إحـــاطةً كاملةً بالقضيةِ .فليأذنْ لي سمو الدوق بمرافعتي .

– وبعد أنْ أذنَ الدوقُ لبورشيا بالمرافعةِ تقدمتْ من كلٍّ من أنطونيو وشايلوك وسألتهما فـــيما إذا كانا الشخصَين المختلفين . ثم وجهت حديثها لشايلوك قائلةً :

– إن القضيةَ التي تُثيرُها يا سيد شايلوك هيَ منْ نوعٍ عجيبٍ ، بيدَ أنها من نوعٍ لا يستطيعُ قانونُ البندقيةِ أن يمنعَ السيرَ في اجراءاتِـهِ .

ثم وجهت حديثها إلى أنطونيو وأردفت :

– هل تعترفْ بالصك يا سيد انطونيو ؟

وعندما أجابَ انطونيو بالإيجـــابِ توجّهتْ إلى شايلوك وقالت :

– إذنْ فمن واجبِ اليهودي أن يكونَ رحيماً .

فردَّ شايلوك متململاً :

– وما الذي يُلزِمني بذلكَ يا سيدي ؟

رَدَّتْ بورشيا :

– إن الرحمةَ لا يُلزمُ بها الناسُ إلزاماً ، وإنما هي كالمطرِ المنسكِبِ من السماء على ما تحتَـهُ ، فهي تبارِك مَنْ يعطي وتُبارك من يأخُذْ . والرحمةُ أنبـــلُ ما تكون عند أقوى الناس . وبعدُ ، فإن أنت مضيت في شكواك هذه فإن المحكمةَ صارمةٌ وستضطرُ إلى إصدار حكمها على ذلك التاجر المدين .

ردَّ شايلوكُ بإصرار :

– لتقعْ تبعةُ أعمالي على أمِّ رأسي ! إني متمسك بالقانون .

وسألَتْ بورشيا أنطونيو قائلةً :

– أوَعاجزٌ أنتَ عن أداء الدَّينِ ؟

فردُ بسانيو باعتباره المَدين الأصيل وقال :

– اني أقدّمه إلى اليهودي الآنَ في حَرمِ المحكمة يا سيّدي بل ومستعدٌ لتقـديمِ ضِعفَيه ، بل وعشرةِ أمثاله . فاذا لم يَقبلْ فلا مراء في أن جانب الحقـد في نفسه يرَجحُ جانبَ العدالة . وإني أتوسّل اليكمُ أن تُخْضِعوا القانون مرّة واحدة لسلطانكم من أجل الخير وأن تحولوا دونَ هذا الشيطان وتحقيقِ مآربه الدنيئةِ .

اني أتوسّلُ إليكم أيها السادة ..

وانفضتْ بورشيا قائلةً :

– هذا ما لا يمكن أن يكون . ليسَ في البندقيـة سلطةٌ يسعُها أن تلغي قانوناً مقرراً ولن نضعَ سابقة تكون سبباً في تدميرِ هيبةِ الدولة .

عند ذاك هتف شايلوك مبتهجاً :

– هذا نبيٌّ يهوديّ جديد .

ثم طلبت بورشيا الصك من اليهودي وتأملته برهة ثم قالت :

– لقدْ فاتَ موعِدُ هذا الصك . ولهذا فإن من حق اليهودي أن يطالبَ برطلٍ من اللحم يقتطعه هو



شايلوك اليهودي الحاقد

من أقربِ موضعٍ إلى قلبِ التاجر أنطونيو . فكن رحيماً أيها السيد شايلوك . خـذْ ثلاثة أمثال دَينك

و مرني بتمزيقِ الصك .

فردّ شايلوك :

ـ سآمركَ بتمزيقهِ بعد الأداءِ حسبَ نصه . لقد أقسمتُ بإله اليهود أيها القاضي المتبحّرِ في علمِ القانون. كما أن المالَ هو مالي العزيز .

وضاقَ صدر أنطونيووهويستمعُ إلى ذلك الحديث فقالَ يائساً :

ـ إني أتوسلُ إلى المحكمة بكل ما فيّ من قوة أن تُصدر حكمها وتضعَ حداً لهذا .

وردّت بورشيا :

ـ يجب عليكَ إذنْ أنْ تعدّ صدرك لسكّينه .

فهتف شايلوك :

ـ يا لكَ من قاضٍ نبيلٍ ومن شاب ممتاز !!

قالت بورشيا :

ـ ان القانونَ يحتمُ تطبيقَ العقوبةِ كما وردَتْ في نصّ العقد .

فوافقَ شايلوك على ذلك :

ـ هذا حقٌ . يا لكَ من قاضٍ نزيه !

فأمرتْ بورشيا انطونيو أن يكشفَ عن صدرهِ .

ولم يتمالكْ شايلوك نفسهُ فهتفَ :

ـ اقربُ موضعٍ من القلبِ ، تلكَ هي الألفاظُ نفسُها كما وردتْ في الصك .

وسالتْ بورشيا عن ميزانٍ فاخرجهُ اليهودي من ثيابهِ فقالت بورشيا :

ـ فلتحضرْ جرّاحاً هنا يا شايلوك ، وعلى نفقتك ، لكي يوقف دماءَ جروحه . حتى لا يموتَ من النزيف .

واعترض شايلوك :

ـ إن الصكّ لم يلزمني بذلك. ولن أفعلَ .

والتفتت بورشيا إلى أنطونيو تسألهُ إذا كان لديه ما يقوله فأجاب :

ـ هات يدك يا بسانيو . لا تحزنْ لوقوفي في هذه المحنة من أجلكَ . كلُّ رجائي هو ان تذكرني بخير أمامَ زوجك النبيلةِ النادرة وعندما تروي لها القصة

فلتدعها تحكمُ : هل كان لبسانيو يوماً صديقٌ صدوق .

وأرجوكَ ألا تحزنَ إلا لشيءٍ واحد هو أنك فقدتَ صديقاً بفقدي . فإن فعلتَ فليسَ هو بنادمٍ على أنه ماتَ في سبيلِ الوفاء بدَينك .

وردّ بسانيو وقد أخذ منه الأسى كل مأخذ :

– أنطونيو ، ليس عندي أعظمَ قيمةً من حياتك ، لا أنا ولا زوجتي ولا الدنيا بأسرها .

وردت بورشيا موجّهةً حديثها مازحةً إلى زوجها الذي لا يميزها وقالت :

– لو أن زوجتك كانتْ هنا تصغي إليكَ لما رضيتْ به .

فهتفَ جراتيانو :

– لي أنا أيضاً زوجة أحبها ولكم وددتُ لو أنها كانت في السماء واستطاعت ان تتوسلَ إلى قوةٍ من القوى ترد عن أنطونيو قسوةَ هذا اليهودي الظالم .

ورددت بورشيا :

– إن من حسنِ حظك أنك تقول هذا من وراء

ظهرها ، وإلا لأثارت هذه الرغبةُ الشقاق بينكما .

وسادَ الصمتُ برهةً كتمَتْ اثناءَه انفاسَ الحضورِ .

ثم قطعتهُ بورشيا وهي تطلبُ من شايلوك أن يتقدمَ من انطونيو وينتزعَ رطلاً واحداً من اللحم يقتطعهُ من أقربِ مكانٍ إلى قلبه . فلما همّ اليهودي بقطعِ اللحم هتفت به قائلة :

– انتظر . ان الصك ينصّ على أن تقتطع رطلاً واحداً لا يزيد قيراطاً ولا ينقص ... كما انه لا يتيح لكَ قطرةً واحدةً من الدماء . إن الألفاظَ تنصُ صراحة « رطل واحد من اللحم » ولكنك إذا أرقتَ قطرةً واحدةً من دم مسيحيّ صودر عقارك وبضائِعكَ لدولةِ البندقية وفقاً لقوانينها .

وسَرَتْ موجةٌ من البهجةِ بين الحضور ، وارتفعَ صوتُ جراتيانو يقول :

– يا لكَ من قاضٍ عادل . انه نبيٌّ يا شايلوك !!

لم يدعْ الدوقُ للفوضى أن تأخذَ لها مكاناً ، فضربَ بمطرقتِه يأمرُ بالسكوتِ وعدمِ الإخلالِ بالنظام .

وقال شايلوك بنفس منكسرة :

ـ أهذا هو القانون ؟

فاجابت بورشيا :

ـ ثِقْ أنك ستنال من العدالةِ أكثرَ مما تطمعُ اليه.

فأطرقَ اليهودي وقال :

ـ إذنْ فاني أقبل بما يعرضُه بسانيو ، ليؤدي لي ثلاثةَ أمثالِ الصك ولينصرفَ المسيحي إلى حال سبيلهِ.

تقدّم بسانيو وفي قبضته كيسٌ كبيرٌ من النقودِ ليعطيها لليهودي ، لكن بورشيا منعته وهي تقول :

ـ ولكنك رفضته علانيةً أمام المحكمة .

قال اليهودي :

ـ ألن أحصل حتى على رأسِ مالي ؟

فأجابته بورشيا :

ـ لن تحصلَ إلى على الشرطِ الثابتِ في الصكِ . تأخذهُ على مسئوليتك .

فغضب شايلوك :

ـ فليحتفظْ بالمبلغ.وليذهبْ إلى الشيطانِ ، ولستُ مستعداً للإطالة في هذه المسالة .

فنهرته بورشيا :

ـ ليس الأمر بهـذه السهولة ان للقانون والعدالة حقاً آخرَ عليك. إن قانون البندقية صريح.وهو يقولُ : « إذا ثبتَ أن أجنبياً حاول القضاء على حياة مواطن، بطريقٍ مباشر أو غيرَ مباشر فإن من حقّ الطرف الذي بُذلت تلك المحاولة ضده ان يحصلُ على نصفِ ممتلكاته أما النصفُ الآخر فيصبحُ حقاً لخزانة الدولة . وتكون حياة المذنبِ تحتَ رحمةِ الدوق نفسه دونَ سواه . فإذا أصرّ على استعمالِ هذا الحق فليسَ لأحدٍ أن يعارَضهُ فيه » . هذا هو موقفك أيها اليهودي .

ومرةً أخرى ثارت ثائرةُ الحضور فرحاً.وكانت تعلو من الجنبات صيحاتٌ تطالبِ بشنقِ اليهودي أو بصلبه على سورِ المدينة .

وبعدَ أن هدأت المحكمة وسادَ الصمتُ قال الدوق :

ـ ولكي ترى يا يهودي كيفَ تختلفُ نفوسنا عن نفوسِ اليهود فإني أهبك الحياةَ ، قبل أن ترجوني أنت ذلك . أما ثروتك فنصفُها لأنطونيو ، ويضاف النصفُ

الآخر إلى أموالِ الدولة العامة . ولكني أحيله غرامة خضوعِك وتذللِك .

وفي هذه اللحظة هتف شايلوك قلقاً :

ـ خذوا روحي واتركوا لي مالي . إنكم تنتزعون حياتي حينما تنتزعون من يدي ما أعيش بِهِ .

التفتت بورشيا إلى انطونيو تسأله الرحمة التي يمكن أن ينالها اليهودي منه فقال :

ـ إذا رضي سيدي الدوق وهيئة المحكمةِ أن يعفى اليهودي من توقيعِ الغرامةِ الخاصةِ لنصف املاكه فإني أرضى بهذا وأفرحله. أما النصف الذي خصتني به المحكمة الموقرة فسأحتفظ به لحينِ وفاتهِ ، ومن ثم أهبه إلى السيد لورنزو الذي اختطف ابنته . ولي شرطان آخرانِ أولهما : ان يعتنق اليهودي في نظير هذا الفضل الدين المسيحي أمام المحكمةِ ، والثاني : أن يهب كلَّ ما يملك بعد وفاتهِ إلى ابنتهِ جسيي وزوجها لورنزو .

ضرب الدوق المنصة بمطرقتهِ وهو يقول :

ـ سيفعل ذلك حتماً وإلا فسأسحب العفو الذي نطقت بهِ .

ورفعت الجلسة وغاب الدوق في إحدى الردهاتِ الجانبية مع هيئةَ المحكمةِ ، وأخذ الجمهور يغادر المكان وسط ضجيجٍ وحماسٍ منقطعِ النظير .

وهتف جراتيانو عندما مرّ به شايلوك :

ـ لو كنت القاضي لسقتك إلى المشنقة .

*

لم يبقَ في غرفةِ المحكمةِ سوى بورشيا وتيريز وبسانيو وانطونيو وجراتيانو فتصافحوا فرحين، وقال بسانيو لبورشيا وهو لا يميز أنها زوجته متنكرة في هيئةِ شاب :

ـ أيها السيد النبيل . إنني وصديقي قد برئنا اليوم من عقوبةٍ رهيبةٍ بفضلِ حكمتِك .. لذلك نتوسل أليك أن تامرنا باى مبلغ تشاء ، تعويضاً عن المشاقِ التي تكبدتها في سبيلنا .

وقال انطونيو :

ـ وسنظل فوق هذا مدينين لك ما عشنا ديناً يفوق المالَ .. مدينين لك بحبنا وخدماتنا طول عمرِنا .

وردَتْ بورشيا قائلةً :

ـ لقد ظفِرَ بخيرٍ من آبَ مرتاح الضمير. وجلُّ ما أطلبُهُ أن تذكراني بخير ، وأستأذنكم الآن في الرحيل.

وهتفَ بسانيو :

ـ سيدي العزيز ! أجدُني مضطراً إلى الإلحاحِ عليكَ في أنْ تأخذَ تذكاراً على سبيل الهدية .

فقالت بورشيا :

ـ ما دمتَ تلحّ وتُصرّ فانا أقبلُ قفازَي السيد انطونيو فالبسهما على سبيل التذكار ، وأنت يا سيدبسانيو سآخذُ منك هذا الخاتم دليلاً على محبتك .

جمدَ بسانيو ووقعَ الطلبُ عليه وقوعَ الصاعقةِ فاخذ يحاول عبثاً أن يبخسَ من قيمةِ الخاتم أمامَ بورشيا ويمنيها باثمنّ خاتمٍ في السوق .. لكنها رفضَتْ رفضاً قاطعاً سوى ما طلبت . فاحتارَ في أمره ، واضطر أن يصارحَ بورشيا بسر خاتمه ، وكيفَ أن زوجته استحلفته ألا يبيعه أو يهبه أو يفقدَهُ .وحثّ انطونيو صديقه على ترجيحِ حبه ووفائه للشاب على أوامر زوجته ـ

وكانت بورشيا وتيريز قد غادرتا المحكمةَ آنذاك ـ بينما قرّ الرأي بعد ذلكَ على أن يذهبَ جراتيانو في أثرهما ليعطي الخاتم إلى الشاب المنقذ .

وقال أنطونيو عن ذلك :

ـ هذا أقل جزاء له يا بسّانيو .

٧

خرجت بورشيا وتيريز من غرفة المحكمة لتتنسما هواء البندقية العليل وهما ما تزالان متنكرتين . وما إن بلغتا القنطرة المدعوة « جسر التنهدات » حتى التفتت بورشيا إلى تيريز تقول لها :

— سيفعلان كلاهما ، ويتنازلان عن خاتميهما. وسترين ذلك بنفسك .

ثم أخذتا تتاملان الفتاة وزوارق الجندول الجميلة تتهادى على وجه المياه أشبه بعرائس البحيرات . وكان يغمرهما الفرح والحبور لما تم في جلسة المحكمة .

ولم يطل بهما الانتظار . فقد أطل جراتيانو لاهثاً وقال :

— سيدي النبيل! لقد لحقت بك أخيراً لحسن الحظ.

لقد أرسلني إليك السيد بسانيو بهذا الخاتم بعد أن فكر في الأمر ملياً ، وهو يرجوك ان تسعده بصحبتك على مائدة العشاء .

واجابت بورشيا وهي تنظر إلى تيريز مستبشرة :

— هذا ما لا أستطيعه . أما خاتمه فإني أقبله مع خالص شكري .

فمالت تيريز إلى جراتيانو وقالت :

— أليس لكاتب القاضي عندك مقام ؟ سأكون جد شاكرة ، ولسوف أتذكرك دوماً لو تخليت لي عن الخاتم الذي في إصبعك .

وتردد جراتيانو قليلاً ولكنه حدث نفسه قائلاً :

« ما دام بسانيو قد تخلى عن خاتمه جزاء للعمل النبيل فكم بالأحرى أن أفعل أنا ! »

فأخرج الخاتم من إصبعه وناوله إلى تيريز قائلاً :

— لن أكون أقل وفاء وكرماً من صديقي بسانيو . .

وانطلق جراتيانو عائداً إلى حيث كان بسانيو وانطونيو في انتظاره .

أما بورشنا وتيريز فقد فرحتا لحصولهما على خاتمي زوجيهما استعداداً للمفاجأة التي أعدتاها لهما عند اللقاء مرة أخرى في بلمونت .

*

كانَ القمرُ يرسلُ نورهُ الورديّ على أكتافِ الأشجارِ ووجوهِ المروج في قصرِ بلمونت الهادىء وسطَ السكون الطبيعي الحالم . وكانت النجومُ في السماءِ السحيقةِ تستحمُ في بحرِ أنوارِهِ وتغيبُ . وكانتْ جسيكا ولورنزو جالسين في غرفةِ بورشيا المضاءةِ بالشموع يتأملُ أحدُهما الآخر . وكان الحبُ المتبادَل بينهما يعبر بهما بوابة الخيال إلى عالمِ الاحلام اليقظة .

ونظرتْ جسيكا إلى لورنزو وقالت :

— في ليلة كهذه الليلةِ كانَتْ تيسبي البابلية تنقلُ على الندى خطواتِها المذعورة وهي ترى خيال الأسد أمامها فتلوذُ بالفرار مذعورة قبل أن تراه . لقد انتحر حبيبها بيراموس لمّا ظنّ أن الأسدَ قد افترسها ، بعد أن عثرَ على وشاحها مُخضّبا بالدماء .

فردّ لورنزو :

— وفي ليلةٍ كهذهِ فرّت جسيكا من منزلِ اليهودي الثريّ مع عشيقها الطائشِ حتى بلغا بلمونت .

وقالت جسيكا بغُنْجٍ :

— وفي ليلة كهذة ، أقسم لورنزو الشاب أن يُحبَّها حباً جمّاً ، وقد سلبَ لبها بكثيرٍ من الأيمانِ ولم يكُنْ في احدِها صادقاً .

ورد لورنزو غامزاً من قناتِها :

— وفي ليلة كهذه عمدَتْ جسيكا الفاتنةُ في مكرٍ ودهاءٍ إلى إساءةِ الظن بحبيبها .. لكنه غفر لها .

كانت المداعبة اللطيفة تسلخُهما من عالمهما وكلاهما في نشوة بالغة . فلم ينتبها إلا حينما دخل عليهما خادم يُعلمهما أن السيدةَ بورشيا قادمةٌ بعدَ أن وفَتْ نذرها في الصلاة من أجل أن يَهَبها الله حياةً زوجيةً سعيدة ، وأنها ستكونُ في القصرِ قبلَ انبلاجِ الفجرِ .

كان الخدم يرتبون أثاثَ القصرِ وينظّفونَه ، ويوقدونَ عشراتِ الشموعِ ، بينما أخذ لورنزو يدَ جسيكا إلى

حديقةِ القصر يتأملان النجومَ اللامعـــةِ التي تُرصِّع السماءَ ببريقها . وكان النسيمُ العذب يقبـلِ وجهيـهما برفقٍ وصمت عند كل خطوة . وجلسا فـــوقَ كرسيٍّ مرمري يتنصتانِ للسكونِ العذبِ ، فيما الهواء العليل يرسل ألحاناً ملائكية وكائناته تتحرك .. وكأنهما أمام مشهدٍ لحفلة سماويةٍ رائعةٍ .

واقتحم سمفونيةَ الصمت الطبيعية وقعُ حوافرِ خيلٍ قادمةٍ من بعيدٍ . وكان يرافقها أصواتُ أجراسٍ نحاسية ، أخذت تقتربُ وتتضخم حتى ملأتْ مسامع الزوجين الهائمين،ولفتت انتباه حرسِ القصرِ وخدمه .

*

وقفَتْ العربةُ أمامَ بوابةِ القصر الحديدية وتقدمَ شبحٌ من مِزلاج البوابة وفتح الدرَّفتين وسطَ صرير الحديد . كانت أضواء الفانوسين الشاحبين تلوّنُ الأشياء بلونِ الذهب فيما العربة تهرول إلى فناءِ القصر .

ونزلت بورشيا وتيريز واستبشرَ سكانُ القصر . ومسَّت موجةُ الفرحِ كآبة القصر وصمته وانبعثتْ في كل كائنٍ فيه روحٌ جديدةٌ .

لقدْ كانَتْ بورشيا دُرّةً نادرةلتاجِ القصر وبهجتِـهِ وبعودتِها أضاءتْ الأجواء نوراً وفرحاً .

رحّبَ لورنزو وجسيكا بالسيدةِ بورشيا وتـيريز وهما لا يدريان من أمرِ تنكُّرهما شيئاً،وتبادلوا عباراتِ الترحيبِ والودِ ، وجلسوا فوق أرائكَ مريحةٍ . وأخذ يدور فيما بينهم حديث كلُّه تلفيقُ أنباءٍ لا أساس لها من الصحة . وقـــد تعمّدت بورشيا ذلك كي تحتفظَ بالمفاجأةِ حتى وصولِ بسانيو ...

مضتْ فترةٌ وجيزةٌ على تلك الحال إلى أن قَـدِمَ خادم يُعْلِمُ بورشيا ان عربة تحثّ السير باتجاه القصرِ ، ويُعتقدُ أنها عربةُ السيد بسانيو . فتنبهتْ بورشياالأمرِ فاتها فقالت :

– ليعلمْ جميعُ من في القصرِ أنْ أمرَ مغادرتي وغيابي سوف يبقى سرّاً إلى حين .

كان بسانيو وجراتيانو قـــد ألحّا على انطونيو في الحضورِ معهما إلى بلمونت والتعرّف إلى السيدةِ بورشيا ، وتلاوةِ الوقائعِ التي جرت في المحكمة، وخاصةً عن حكمة

ذلكَ الشاب الوسيمِ الذي أنقذَ الموقفَ بلباقتِـهِ، وسَعـةِ معارِفهِ ودرايتِـهِ .

دخل الثلاثةُ القصرَ وجاءتْ بورشيا تتقــدمُ المستقبلينَ ، فبادرَها بسانيو وقال :

ـ لو أنك تجلّـيتِ بطلعتك البهية في ظلامِ الليل لجعلْتيه نوراً ، فكنّـا في رابعــة النهــار يا سيّـدتي الجميلة .

وردت بورشيا :

ـ دعني أحبّ النورَ ولكن دونَ طيشٍ ونَزَق ، فإن الزوجة الطائشة تُورّث زوجهــا الحزنَ ، ولنْ أسبّبَ ذلك لبسانيو العزيز . مرحبــاً بك في دارك يا مولاي .

فأجاب بسانيو وهو يقدم لها أنطونيو :

ـ أشكركِ يا سيــدتي ، هلمّـي رحّبي بصديقي . هذا هو انطونيو الذي أنا مدينٌ له بكل شيء ..

فقالت بورشيا وهي ترّحب بانطونيو اجمل ترحيب.

ـ إنكَ جديرٌ أن تكون مديناً له منكلناحية ، فقد

اسمعتُ أنه ارتبط بمواثيقَ غليظةٍ من أجلِكَ .

كانت بورشيا تتنبّـه لكلّ كلمـةٍ تنطقُ بهـا حتى لا يزِلّ لسانُها عن إشارةٍ تفضحُ حقيقتها ، وتفسِد عليها مفاجآتها .

أجابَ أنطونيو رداً على حـديثِ بورشيا ، فقـال وقد احمرّ وجهه خجلاً .

ـ إني لست دائناً بغير ما بُرّئت منه .

قالت بورشيا :

ـ سيدي ، مرحباً بك في دارنا . ومهما أظهرنا لك من حفاوةٍ فإننا سنكونُ مقصّرين في أنْ نَفِيـكَ حقكَ العظيم .

ودلفَ الجميعُ إلى داخلِ القصرِ ينفضون عنهم عناءَ السفرِ ويأخذونَ قسطاً من الراحةِ .

*

كانَتْ تيريز اللجوجة قد انفردت بزوجها جراتيانو في الوقت الذي كان القوم يشربون فيه الشايَ مع إطلالة الفجر السنِيّـة، والقمر آخذٌ في الانحدارِ وأيدي الأشجارِ الممتدةِ من صدرِ الأرضِ تشدّه اليها . ولم يطلْ لقاؤها

به حتى سمع الحضورُ صوتَ جراتيانو وهو يصرخُ :

ـ قسماً بهذا القمرِ إنكِ تظلمينني .

أمسكتْ تيريزُ بيدهِ وجرّته إلى وسطِ الغرفة أمامَ الحضورِ بينما جراتيانو يقولُ متابعاً :

ـ واللهِ لقدْ اعطيتُـهُ إلى كاتب القاضي . أما وقد تاثرتِ يا حبيبتي إلى هـذا الحد فياليتَ الكاتبَ كان مسخاً .

قطعت بورشيا انشِداهَ الحضور بقولها :

ـ ماذا جرى ؟ أمشاجرةٌ بهذه السرعة ؟ ما السبب؟

فرد جراتيانو وقد هدأت ثائرتُه :

ـ سيدتي ، إنها تتشاجرُ حول طوقٍ من الذهب ، خاتم تافه كانت قد أعطتني إياه وقد حفرتْ عليه كلماتٍ كتلك التي ينقشها الصنّاع في العادة .

ولفظَ بكثيرٍ من السخريةِ كلمة « أحبِبْني ولا تتخلَّ عني ».

فهتفتْ تيريز وكأنها تؤنبهُ وقالت :

ـ ولِمَ تتحدثُ عن النقشِ أو عن القيمة ؟ لقـــد

أقسمتَ حينما أعطيتُـك إياه أنك لن تخلعَـهُ من اصبعِـك حتى ساعة مماتك ، وانه سيدفن معكَ في رمسِك . كانَ جديراً بك من أجلِ أيمانك المغلّظة ـ لا من أجلي ـ أن تحفَظَ عهدَكَ وتصونَ يمينَـك . وتقول إنك أعطيته لكاتب القاضي !! مع أنه لم ينبتْ في وجهه شعرة .

وعلى هذا رد جراتيانو هازئاً :

ـ اطمئّني ، لا شك ان الشّعر سينبت في وجهه إذا عاش وأصبح رجلاً .

ـ نعم بل قل إذا عاشتْ المرأة وانقلبت رجلاً !

فرد جراتيانو بإصرار:

ـ لقد أعطيته بيدي هذه لشاب ، لفتى بائس صغير ليس أطول منك قامة . إنه فتى ثرثار سألني إياه نظـير أتعابه ولم تطاوعني نفسي أن أرفضَ طلبه .

قالت بورشيا :

ـ يجبُ أن أقولَ لك بصراحــةٍ إنك ملومٌ على تخلّيك بسهولةٍ عن أول هديةٍ قدمتْها لك زوجتكَ . لقـد أعطيتُ لحبيبي بسّانيو خاتمـاً وجعلته يُقسم انه

لنْ يبرحَ اصبعَهُ أبداً . وها هوذا واقفٌ ،وأستطيعُ أن أقسمَ نيابةً عنهُ انه لن يتخلى عنه أو ينزعه من إصبعه حتى لو كان ذلكَ مقابلَ كنوزِ الدنيا كلها .

احمرَّ وجهُ بسانيو خجلاً وقد شعرَ بالحرَج أمامَ حديث بورشيا . وحاول ان يخفي يديه، لكن جراتيانو لم يسعْهُ وهو في معرضِ دفاعهِ عن نفسهِ أن فضح بسانيو قائلاً :

ـ لقد أهدى سيدي بسانيو أيضاً خاتمهُ للقاضي الذي ألحّ في طلبه ، وكان به جديراً . وحينذاك ألح كاتبه في رجائي أن يأخذ خاتمي . وكانَ قد بذلَ بعضَ الجهدِ في الكتابةِ . والحقَ ان السيد وتابعه قد زهدا في أي جزاء سوى هذَين الخاتمين وقفازَي انطونيو .

تصنّعت بورشيا الدهشة والغضب وهي تلتفت إلى بسانيو وتهتفُ به قائلة ؟

ـ وأي خاتمَ أعطيتَ يا مولاي ؟ آملْ الا يكونَ ذلك الخاتمَ الذي تلقَّيتهِ مني.



بورشيا تذكّر بسانيو بالصناديق

أسقِطَ في يد بسانيو .. فلم يجدْ أمامَهُ مفراً غيرَ الاعترافِ بالحقيقة الكامِلة فقال :

– لو أني استطعت أن أضيفَ أكذوبةً إلى جَريرتي أذنْ لقلتُ إنني لم أفعل ، ولكنك تَرَيْن إصبعي خِلواً من الخاتم !

قال هذا ومد يديه مستسلماً لقَدَره، بينما استشاطَتْ بورشيا غضباً وهي تفعلُ ذلكَ ، لتُوهمه انهـا تنكِرُ عليه فِعلتهُ . وقالتْ :

– أُقسمُ بالله أني لن آوي إلى فراشك حتى أرى الخاتم في اصبِعك ، الخاتم الذي أقسمتَ عليه يومَ اختـرت الصندوق الرصاصِيَ من بين الصناديق الثلاثة !!

وعاضدت تيريز قَسَم بورشيا وهي تقول :

– ولا أنا فاعلة ذلك معكَ يا جراتيانو إلا إذا رأيتُ خاتمي في اصبعِكَ .

وأخذَ جراتيانو وبسانيو وراوغانِ ويسوّفانِ أخباراً وقصصاً . ولم يجدْ بسانيو في النهاية منفذاً يدخـلُ منه ويكونُ مؤثراً غيرَ الحقيقة كما حدثت فقال :

- أيْ عزيزتي بورشيا ! لوأنكِ عرفت من اعطيتُ الخاتم ومن أجـلِ من أعطيته! وكيف تركته على غير رغبة مني في ظروفٍ قاهرة .. اذ لم يقبلْ المحامي مني أي شيءٍ سوى الخـاتم . لو انك عرفتِ ذلك كلـه لخففتِ من غضبك عليَّ .

وردت بورشيا بعنف :

- لو أنك عرفتَ قيمة ذلك الخاتم أو نصف قيمة من أعطتك إياه أو عرفت الشرف الذي تناله بحيازةِ الخاتم . لما فرطتَ فيه . كانَ لزاماً عليك أن تعمد إلى الدفاعِ عن الخاتم بعباراتٍ قوية ، فـلا يكونُ بوسع أي انسانٍ مهما بدا جامدَ الأحساسِ - أنْ يجد من الأدبِ الإصرار على حيازةِ هذا التذكار. ان تيريز قد علّمتني ما يجب أن اعتقدهُ وإن الموتَ لأقربُ إليّ من الاعتقـاد بانك أعطيتَه لامرأة .

وقف بسانيو على قدميه وفتـح ساعديه إلى السماء وهو يُقسم انه لم يفعلْ .

كان انطونيو يراقبُ المشهدَ هادئاً وقد أُخذَ بمنطقِ السيدةِ وتأثرَ لحرجِ صديقهأمامها ، بينما بورشيا تقول :

- أرجو أن لا تدعْ هـذا العالمَ يمرّ بدارنا أبداً ، لأنه قد ظفرَ بالجوهرةِ التي أحببتُها ،والتي أقسمت على حفظها وصونها . أنا أخشى أن أعُطي نفسي من الحرية ما أعطيته أنت لنفسك،فلا أنكر على ذلك العالم أي شيء أملكه حتى نفسي .

جُن جنونُ بسانيو وهو لا يكادُ يصدّقُ ، فهـدد صارخاً : « حسناً ،إفعلي وحذار أن تمكّنيني من القبض عليه ، لأني إن فعلتُ فساحطّم قلمه على أم رأسه .

ولم يجدْ انطونيو بداً من التدخـل بعد أن تأزمَ الموقفَ فقال :

- ما آتعسَ حظي لأني أنا الشقيُ ، وسببُ هـذه المشاجرات .

كانَ بسانيو قد هدأَ ، فاخذ يتملقُ ويتودد لبورشيا ويسوقُ لها أعذبَ العباراتِ وأوسَعَ المنى .. ولكنها لم تكن تصغي . مما اضطر انطونيو أن ينهض ويمسك بيد بورشيا مصافحاً ،ويقول:

- سيدتي ، لقد رهنتُ جسدي في يوم من الأيام ضماناً لثروتـهِ .ولولاذلك الذيأخذَالخاتمَ لكنتُ فقدتُ الحياةَ . وأستطيع أن أتعهدَ مرةً أخرىوأجعلَ روحي ضامنةً

لتعهدي بأن زوجكِ سيكونُ مخلصاً لكِ إلى الأبد .

فأجابَتْ بورشيا :

ـ اذنْ فستكونُ أنتَ ضامنَه مرة أخرى !

ثم أخرجتْ الخاتم من جيبها وأعطتــه لأنطونيو وهي تقول :

ـ أعطهِ ، هذا ومُرهْ أن يحفظه خيراً مما فعل بالآخر.

وأمسك أنطونيو بالخاتم وناوله بسانيو وقال :

ـ أتقسِم أنك ستحافظُ على هذا الخاتم مادمتَ حياً !؟

شُدِه بسانيو وهو ممسكُ بالخاتم يقلّبه ويــكادُ لا يصدقُ عينيه وهو يردد :

ـ إنه هو ، هو بعينه . أقسِم أنه نفس الخاتم الذي أعطيتُه للعالِم .

وفي تلك اللحظة أخرجَتْ بورشيا خطاباً وناولته لأنطونيو وهي تقول :

ـ إني أراكم تعجبون ! لقد أخذتُه منه .

ولم يــكد انطونيو يفرغُ من قراءةِ الرسالةِ حتى صاح :

ـ مستحيل ! كيف ! إننا جميعاً لم نعلم أن المحامي كانت بورشيا والفتى الكاتب هو تيريز !! مستحيل .

فهتفَتْ بورشيا تقول :

ـ نعم أنا هي الفتى الذي رافعَ امامَ الدوق . ويعلم لورنزو وجسيكا انني غادرتُ مع تيريز القصر بعــد أن وضعناه بعهدتها .

ثم قالت لانطونيو :

ـ لكَ مفاجأةً أخرى ، أبلّغها لك بنفسي إن ثلاثاً من سفنك قــد عادت إلى المرفأ فجــأةً مثقلةً بالبضائع الثمينة .

فهتفَ انطونيو يقول :

ـ سيدتي الحسناء ! لقد وهبتِني الحياةوالثروة.. ولن أنسى ذلكَ مــا دامَ في عروقي دمٌ يجري . إني عاجز عن البيان .

فرحَ الجميعُ للأخبارِ السارةِ وخــاصةً بسانيو وجراتيانو،وضجّ القصرُ مرةً أخرى بالفرح والبهجةِ..

والتفتت بورشيا إلى لورنزو وجسيكا وقالت :

ـ أنتَ أيضاً يا لورنزو لكَ مع كاتبي صك يُفرِح زوجتكَ ويفرِحكَ ، إذ يكون لكُما بمقتضاه كلّ ما يملكه اليهودي ساعةَ وفاته .

وكانَ الفجرُ قد طلعَ وأضاءَ الصباحُ وغمرَ نورهُ قصرَ بلمونت ، وصفّقَتِ الطيورُ محلّقةً في الفضاءِ معلنةً ميلادَ يومٍ جديدٍ ، فسكبَتْ السماءُ بهجةً وفرحاً على الأرضِ .

انتهت

قصص للناشئة

تاجر البندقية



مكتبة المعارف
بيروت